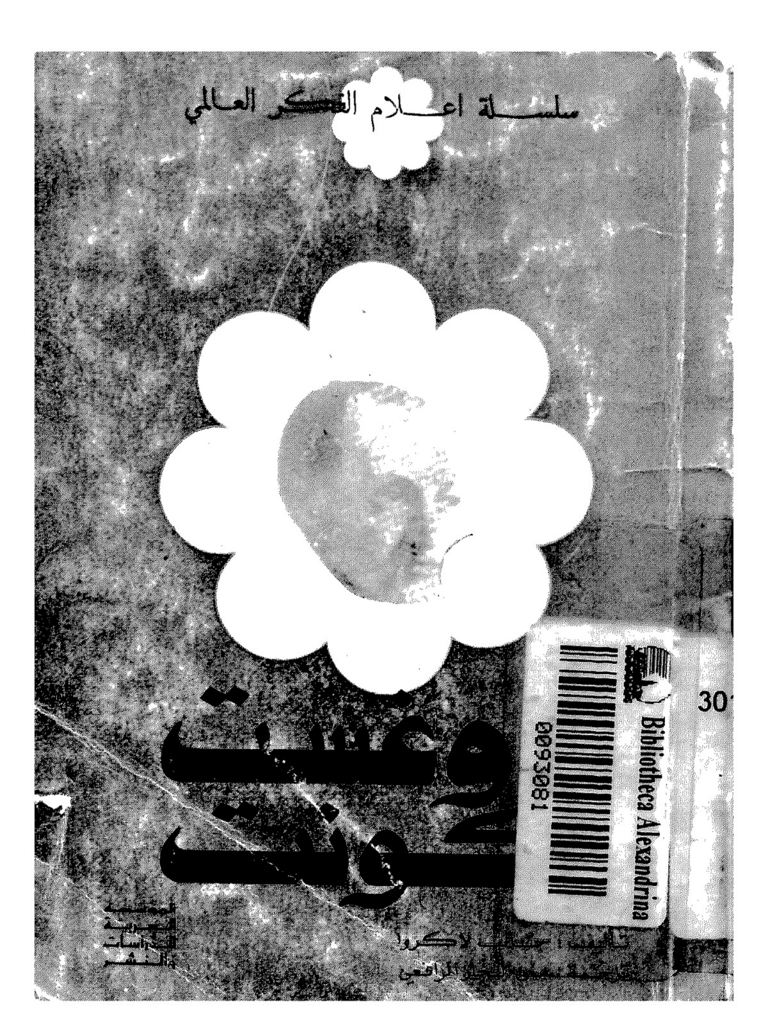

سلسلة اعلام الفكر العالمي
وغست
كونت
تأليف : جان لاكروا
الرافعي
المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر
30
Bibliotheca Alexandrina
0093081

اوغست كونت

سلسلة اعلام الفكر العالمي

علم الإجتماع
لدى أوغست كونت

تأليف: جان لاكروا
ترجمة: منى النجار الرافعي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية صمدي وصالحة - هاتف: ١١/٥٤٦٠
بناية برج شهاب - تلة الخياط - ص.ب: ١٩٥١١٩
برقياً: موكيالي - بيروت

الطبعــة الاولى
تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٧٧

الفصل الأول

الفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة

احاط المفكرون باهتمام خاص الازمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي شغلت الاذهان في بداية القرن التاسع عشر واعاروها الانتباه من هيغل الى ماركس ومن سان سيمون الى برودون وفورييه ومن لامنيه Lamennais الى بالانش Ballanche فكان عصر النظريات الجدلية الكبيرة وفلسفات التاريخ التواقة . وتنطلق هذه المذاهب كافة من تأمل العصر الحاضر الذي يسيطر عليه الحدث المعاصر نسبيا والذي لا يمضي عليه الزمان : الثورة الفرنسية . فيما تبدو ثورات ١٨٣٠ و ١٨٤٨ وكأنها اندفاعات مفاجئة ناشئة عن حمى مرض كامن متخفف ودائم ...

وهكذا في نفس الوقت الذي كان فيه نابليون يحقق الجمع بين النظامين القديم والجديد وفي السنوات التي تلت ذلك ، نجد كثيرا من الفلاسفة والمؤرخين والسياسيين والاقتصاديين يحاولون تحقيق الجمع المذهبي بين الفكر الملكي القديم والفكر الثوري الجديد .. ففي المانيا تلون محاولة التوفيق هذه مظهرا اساسيا من نتاج هيغل ، وفي فرنسا نجد بعض مظاهر الانتقائية والاصطفائية التي لا يمكن ، وان كانت لا تملك اية قيمة فلسفية تجاهل دورها في البنى الفوقية العقائدية ..

وتحتاج بورجوازية القرن التاسع عشر اذا لم تلجأ الى نظريات بونالد Benald وميتر Maistre ولامنيه Lamennais التقليدية ، تحتاج الى نوع من الروحانية المجردة على قدر الامكان ، من كل فكرة والمتحررة نسبيا من الدين لتأديب الطبقة العاملة واضفاء الشرعية على سلطتها الخاصة دون ان تفرض على نفسها واجبات محددة . وقد تفهم كوزين Cousin الامر فاخذ على الكنيسة الكاثوليكية حفاظها على روح التنظيم الاولى بعد ان لفظت لامنيه Lamennais واستبعدته ، واقترح عليها الجمع بين الانتقائية ، بدلا من التقليدية التي تبقي فيها ، وان زودتها بنجاح عابر ، على « القدرية المناقضة لتقاليدها الوطنية ، ومصالحها ، وتصريحات المجامع المقدسة ، وعبقرية الكاثوليكية المستمرة » ..

ويهوى كونت التشبه بهيغل ، فيدعي انه يكمل نفس مهمة التوفيق ، او بالاحرى تجاوز الفكر القديم والفكر الجديد ، ودفع الانتقائية الفرنسية والهيغيلية الالمانية الى القيام بنفس الدور المتحرر ـ المحافظ اذا جاز التعبير ، فيقول « كان هيغل ـ مثلي ـ مقتنعا بالفكر الجديد وكان يعتبر الثورة الفرنسية على انها اكبر واهم انجاز حققته البشرية منذ المسيحية ولم يكن يتوقف عن سؤالي عن رجال وأحداث هذه المرحلة العظيمة .. كان هيغل متحررا دون ان يكون جمهوريا ، فقد كان يعتبر الجمهورية ضرورية لاسقاط المجتمع القديم ، ولكنها عاجزة عن خدمة مؤسسات المجتمع الجديد ، فهو لم يكن يفصل بين الحرية والملكية ... لقد كان هيغل دستوريا بصدق ، ومؤيدا للقضية التي يدعمها روايه كولار Royer - Collard ويمثلها في فرنسا .. »

ومشكلة أوغست كونت Auguste Comte هي مشكلة الجمع بين التقليدية والتحرر ، بين الفكر المحافظ والفكر الثوري ، فهو يريد تجاوز ما يسميه بعلم اجتماع النظام وعلم اجتماع التقدم مع احتوائهما . ويأخذ كونت على سان سيمون السرعة والعجلة ويتهمه بمحاولة معالجة مرض لم يهتم بدراسة طبيعته ، فهو كغيره من الكثيرين الذين يولون اهتمامهم لايجاد الحلول للازمة الاقتصادية أكثر من الاهتمام بتحليلها النظري : فهم يودون قبل كل

شيء وضع حد للثورة والعودة الى الاستقرار . وعلى عكس سان سيمون يظهر منذ البداية ان مفهوم كونت ومنهجه تعقليان ، فالوضعية تنتمي رغم كل ضعفها الى العقلانية الفرنسية التقليدية ، وهكذا يمكن دراسة كونت ، انطلاقا من وجهة نظر معينة ، على انه « متمم لديكارت ومكمل له » فقد كان كونت يحلم بان يكون ارسطو بمنهجته وفلسفته العلم ، وسان بول القرن التاسع عشر بعلم اخلاقه وانشائه كنيسة جديدة . ويقول « دون كلوتيلد دو فو Clohilde de Vaux لما تمكنت ابدا من جعل درب سان بول يخلف طريق ارسطو ، باقامة الدين العام الشامل على الفلسفة الصحيحة بعد استخراجها من المعرفة الحقيقية » . فقد كان كونت يعتبر سان بول المؤسس الحقيقي للنصرانية والمسيح ، بايمانه بالاب الالهي وتبشيره بمملكة الله (الشعوذة والمغامرة خاصة) .

ولا يمكن للطريق الثاني أن ينسينا الدرب الاول لذا يعتبر مؤلف « بحث في الفلسفة الوصفية » يعتبر الازمة السياسية والاجتماعية عقلانية بالدرجة الاولى ويوجب ان يكون دواؤها ذات طبيعة عقلانية ... فالافكار هي التي تحكم وتبلبل العالم ، والنظام في الافكار يسبق تنظيم الدولة ويوجهه . كتب كونت يوم ١٨ ايلول من العام ١٨١٩ الى صديقه فالا Valat يقول : « ساعمل على صعيدين الصعيد العلمي والصعيد السياسي » وقد تأسست

العقلانية يوم توقف أوغست كونت عن الفصل بين العلم والسياسة واكتشف وحدتهما العميقة وتنشأ هذه الوحدة عن الأولوية المميزة للمشاكل الفكرية : يتوقف اصلاح المجتمع على اصلاح الذكاء » . ولم تتأثر بهذه الفكرة المدرسة الاجتماعية الفرنسية فحسب بل تأثر بها عدد كبير من المفكرين والادباء من رونان Renan الى برونوتيار Brunetière وبورجيه Bourget وشارل مورا Charles Maurrat الذي كرس أحد مؤلفاته لكونت واكد اتباعه .

ومن غريب الصدف ان يمثل تطور كونت تطور الانسانية بكاملها ... لقد نما كونت في مونتبلييه في اسرة تقليدية : كاثوليكية ومحبذة للملكية ، وفقد الايمان وهو في الخامسة عشر من عمره ، وتحول في مدرسة البوليتيكنيك الفرنسية التي انتسب اليها في عام ١٨١٤ وهو في السادسة عشر من عمره الى متحرر يقرأ كتب فولتير ، لكنه سرعان ما يتجاوز هاتين المرحلتين من حياته ليستنتج خلاصتهما ويكتشف الايجابية العقلانية وهي حسب المفهوم الهيغلي " نوع من التجاوز أي انها تحتفظ بالقيم من المكتسبات السابقة وتلفظ كل ما هو خاطىء . وقد حدد كونت في كتاباته الاولى العائدة الى العام ١٨١٩ الفكرتين الاساسيتين اللتين سيتمسك بهما ولن يتخلى عنهما ابدا : اثر الانسان على المجتمع والطبيعة ضيق ومحدود ولكنه ليس معدوما !!

ويتعلق أثرنا على المجتمع بصورة مباشرة بمعرفتنا ويبلغ ذروته مع انتهاء بناء المعرفة الوضعيـة . « يحرك القانون الاعلى لتقدم الفكر الانساني كافة الاشيـاء ويهيمن عليها : فهو يعتبر الانسان كاداة . ونحن غير قادرين على التملص والافلات من تأثير هذه القوة المشتقة عنا والسيطرة على عملها كعجزنا عن تغيير قوة الدفع الاصلي التي تسير كوكبنا حول الشمس . الآثار الثانوية وحدها تخضع لسيطرتنـا وترتبط بنا . وكل ما نملكه هو اطاعة هذا القانون (سعادتنا الحقيقية) والخضوع له ، ومعرفة الوقائع ، وتحليل المسيرة التي تفرضها علينا فـلا نكتفي بالاندفـاع الاعمى . وهنـا يكمن الاتقـان الفلسفي الكبير الذي تتميز به المرحلـة الحاليـة » .

لقد تمكن جـورج دوماس Georges Dumas من الكلام عن المخلصين والمنقذين الايجابيين سان سيمون وأوغست كونت ولكن الاخير لم يتمكن مـن تعريف الناس الى طرق جديدة الا لقيامه بثورة على صعيد الفكر . فقـد كتب يقول منذ عام ١٨٨٢ وبعد ان شخص امراض عصره في « مخطط الاعمـال » : « لقد سبقت الفوضى الفكريـة الفوضى الجسدية واوجدتها » وبالعكس سيسبق النظـام الفكري النظام الجسدي ويوجده . لا بد من ايجاد « ترابط ذهني » يضمن « التلاحم الاجتماعي النهائي » . فالوضعية التي تحقـق « امنيـة الوحـدة الانسانيـة والشموليـة

الكاثوليكية هي التي تنهي عهد الثورات » واعـادة تنظيم روحانيات الغرب هو الركيزة الاولى والوحيدة الممكنة للبعث الزمني . فخلاص المجتمع يتطلب مجهودا غير عادي من الفكر ... ويؤكد البحث .. « يعود الآن الى روح المجموعة بصورة خاصـة السهـر والاشراف علـى اعـادة التنظيم الاجتماعي » . ويمكننا ان نقرأ في الحوار حول المجموعـة العقلانية « تقتضي حاجتنا الاجتماعيـة الاولى وتتطلـب المنهجة الحقيقية لكافة الافكار الانسانية . » ويحدد كونت تطور الارتقاءات المتعاقبة فيقول « يجب ان يتم التنظيـم النهائي في الافكار اولا لينتقل الى الاخلاق في المرحلة الثانية والمؤسسات في الدرجة الاخيرة » .

لقد تنبأ ليبينيز Leibniz وهو مفكر لم نعتـد دراسته من وجهة النظر هذه ، تنبأ قبل قرنين من كونت بما سماه بول هازارد Paul Hazard بازمة الضمير الاوروبي وجد في علاجها مسبقا قبل وقوعها ، فقد راى انبجاس الانفصال بين الدين والعلم واستشعر آثاره الاولى ، فهدف الى تفاديه قبل انفجار الازمة وفوات الاوان .. وكان لا بد له لتحقيق هدفه هذا من منـع النصرانيـة من الوقوع في الضعف والتمزق نتيجة لتعارضها وتناقضها مع نفسها (4) فحصر جهوده وخصوصا محادثاته مع بوسوييه Bossuet في التوفيق بين الكاثوليك والبروتستانت فكـان المؤسس الحقيقي للكنائسية ، هو الذي كان يؤكد « أنا لا احتقـر

شيئا » . ويمكننا تطبيق قوله هذا على نظريته الفلسفية ، على هذه الاصطفائية المبتكرة التي تبتغي التوفيق بين ارسطو وديكارت ، بين الفلسفة والعلم في سبيل انقاذ الحضارة الاوروبية .. وتعتبر فلسفة ليبنيز محاولة عظيمة ، رغم انها خائبة ، بسبب اهتمامها بالدفاع عن الدين لاقامة فلسفة تكون من جهة فلسفة دينية حقيقية ، فلسفة مسيحية ، ومن جهة اخرى وفي نفس الوقت ، فلسفة تشمل تقدم العلوم وتجيب الحاجات المعاصرة .. ورغم الفوارق الظاهرة بسبب اختلاف الازمان والرجال فهناك شبه كبير بين محاولتي ليبنيز Leibniz وكونت الذي اتى بعد قرنين : فكلاهما حاول وضع حد للازمة لا الوقاية منها ...

ولا شك ان كونت لا يؤمن بالنصرانية ولا يود التوفيق بينها وبين المعرفة فهو كما قال عنه هنري غوييه Henri Gouhier « انه يريد اكتشاف رجل مؤمن بالدين لكن لا اثر لله فيه ... » واذا كانت طبيعة كونت المحافظة قد انتصرت في نهاية الامر فهذا لا ينفي رغبته في المحافظة على التراث الثوري فهو يرى في الاجلال اليعقوبي للعقل توقعا للفلسفة الوضعية واستباقا لها . وكان كونت يعتبر نفسه خلف ثوار ١٧٨٩ الحقيقي والفعلي . وقد هنأ اليعقوبيين لاقامتهم البديهية « لنوع من السلطة الروحية في هذا التنسيق الصعب اللافت للنظر الذي يميز النظام الثوري» .

وكان يعتقد بقدرته على الاستمرار في هذه الثورة وتوسيعها بالقضاء على كافة المفارقات وبتأسيس دين المجموعة ، دين الانسانية .. هذا ما يعنيه بقوله « ابعاد الله باسم الدين ». لقد كان كونت يأمل ان يرى في الكنائس « تمثال الانسانية ممجدا على مذبح الله القديم » وكان يتنبأ بأنه سيعظ الفلسفة الوضعية عام ١٨٦٠ في كنيسة نوتردام .

تبقى القضية الدينية رغم تحويرها أساسية لدى كونت فهو يرمي جاهدا الى تحديد الازمة التي عجز ليبنيز Leibniz عن منع قيامها . ويدعي كونت أن حل القضايا السياسية يكون بتقدم المعرفة والعلم وهذا ما يدفعنا الى تحديد الدور الحقيقي لعلم الاجتماع — وطبيعته — في مجموعة الفلسفة الوضعية ، خاصة وان كونت لا يقبل بتقديم أي نوع من المعرفة لحل القضايا الاجتماعية بل يتطلب لحلها اعلاء الفكر العلمي . ويتم هذا الاعلاء للفكر العلمي أو تقدم العلوم اذا رغبنا ، بطريقتين جد مختلفتين ، يتم اما باللجوء الى تطوير الفكر العلمي بصورة عامة وتحسين الوسائل العلمية المتبعة او خلق واقامة علم خاص جديد يهدف الى دراسة المجتمع ..

ويتجلى ابتكار كونت وتجديده في الجمع بين هاتين النقطتين ، فهو وان كان يعتبر ان تطور الفكر العلمي وحده يمكنه ايجاد الحلول للصعوبات القائمة ، الا أنه يؤمن بأن تطور الفكر العلمي لا يتجلى الا بايجاد علم يعتني بدراسة

الوقائع الاجتماعية . ويعتقد كونت بعدم نفع (وحتى مضرة) الفكر العلمي دون العلوم الاجتماعية ، واستحالة قيام علم اجتماعي خارج (تدرج مجموعة العلوم الكاملة) : هاتان هما الفكرتان الاساسيتان لدى كونت (اميل برهييه Emile Brehier) هكذا توصل كونت الى خلق علم جديد ، علم الوقائع الاجتماعية او العلوم الاجتماعية .
بدأ كونت بالقول بعلم الفيزياء الاجتماعية او دراسة الظواهر الاجتماعية التي تشكل مجموعة من الآثار الطبيعية الخاضعة الى قوانين معينة تماما كالظواهر الفيزيائية او العضوية .. ولم يطلق اسم علم الاجتماع على علمه الجديد الا في الجزء الرابع من مؤلفه « بحث في الفلسفة الوضعية » وذلك لتجنب الخلط بين هذا العلم و « محاولات التملك الشائنة » لتعبير « الفيزياء الاجتماعية » اشارة منه الى استعمال البلجيكي كيتيليه Quetelet هذا التعبير لاطلاقه على الطريقة الاحصائية التي استنبطها ، ولا يقصد كونت « بعلم الاجتماع » او « الفيزيائية العضوية » او علم الفرد بل « فيزيائية المجتمع الحقيقية » او علم النوع ، فقد اعتبر دائما الانسانية بكاملها « وحدة اجتماعية كبيرة وابدية » ويقول في الدرس السابع والاربعين من مؤلفه « بحث في الفلسفة الوضعية » اعتقد بوجوب المجازفة والمخاطرة منذ اليوم بهذا التعبير الجديد المعادل تماما للتعبير السابق « الفيزياء الاجتماعية لاعرف باسم واحد عن هذا الجزء المكمل للفلسفة الطبيعية التي تتعلق بالدراسة

الوضعية لمجموعة القوانين الاساسية الخاصة بالظواهر الاجتماعية » . وهكذا تحدد علم الاجتماع الحديث النشأة بأنه الجزء الاخير المكمل للفلسفة الطبيعية ، مما يعني ان خلق علم الاجتماع لا يعتبر فقط خلقا لعلم جديد بل انجاز للفلسفة الطبيعية ، الفلسفة الوضعية . ويقول كونت بوجود ستة علوم أساسية وهي : الرياضيات ، علم الفلك ، علم الفيزياء ، علم الكيمياء ، وعلم الاحياء وعلم الاجتماع » تتدرج في نظام من التعقد المتصاعد وتناقص العموميات الامر الذي يقضي باعتبار كل علم سابق شرطا للعلوم التالية لا سببا لها . ويعارض كونت المادية وان كان يحددها ويعتبرها تفسير الادنى للاعلى .

لا يمكن الشك بوجود نوع من المنهجية المشتركة بين العلوم الاربعة الاولى وهي (الرياضيات علم الفلك ، الفيزياء والكيمياء) بمعنى اننا ننتقل من الاجزاء الى الكل ومنهجية مشتركة بين العلمين الاخيرين (علم الاحياء وعلم الاجتماع) بمعنى ان الكل يفسر الاجزاء . فالكل في علم الاحياء هو الحي ، الفرد ، والكل في علم الاجتماع هو الانسانية ، وان كان هذا لا يمنع بان يكون لكل علم منهجه الخاص ضمن الاطار العام ... وتكمن جدارة كونت في احلاله الوظيفة الحقيقية للذكاء في مختلف العلوم مكان المنطق الصوري القديم دون ان يفصل الذكاء عن العلم مجال تطبيقه ..

واذا كان خطأ كونت يكمن في فهمه العلم وفق مبدأ ديكارت ، بأنه الانتقال من الهين الى المعقد ، الا انه عرف كيف يقبل بنوعية التعقيد فحضر وهيأ للاعتراف بالطبائع المعقدة غير القابلة للتقسيم كالمدة الزمنية . ويعتبر علم الاجتماع من اصعب العلوم واقلها عمومية لانه « لا يعنى الا بالظواهر الانسانية » ويعتبر العلم الاكثر تعقيدا لان الظواهر الانسانية « تضم العدد الاكبر من العناصر » .. الامر الذي يفسر كون علم الاجتماع آخر العلوم من حيث النشأة . ولا يحتاج كونت الى خلق بقية العلوم فقد بلغت تلك العلوم حالتها الوضعية فيكتفي فقط بتحليل منهجيتها . ويختلف الامر بالنسبة الى علم الاجتماع فخلق هذا العلم يقتضي جعله وضعيا قبل تحديد منهجيته وتتطلب هذه المهمة المزدوجة ما يعادل التبسيط الذي يكرسه للعلوم الخمسة الباقية مجتمعة ، اضف ان الفلسفة الوضعية لا تكتمل الا ببلوغ علم الوقائع الاجتماعية المرحلة الوضعية ، ويتيح تأخر نشوء هذا العلم الدوام للتفسيرات الدينية الماورائية المعتصمة بدراسة الظواهر الانسانية «فالعلوم تبقى ملجأ للالهة وصورهم الماورائية » .

ويضفي علم الاجتماع عندما يصبح وضعيا الطابع الوضعي على الفلسفة بكاملها لعدم وجود علم سابع اساسي. وتحمل الوضعية في علم الاجتماع مفهوما عميقا فهي هدف اللاهوت ، وغاية الميتافيزيقية ، ونهاية كل تفسير مبرر ، انها قيام الفلسفة الوضعية .

ويكتب هنري غوييه Henri Gouhier قائلا : « هذا يعني ان المعرفة قد اتسمت بالوضعية بصورة تامة ، وان كافة العلوم تتعاون فيما بينها ، وان الذكاء قد وجد وحدته واستطاع التعبير عنها بالفلسفة » وانطلاقا من هذا الاتجاه يبدو صحيحا القول بتطابق علم الاجتماع والفلسفة .

وتعبير علم الاجتماع مبهم لدى كونت : فهو يعني به مرة علما خاصا علم الوقائع الاجتماعية ، وتارة منهجية المعرفة أي الفلسفة نفسها، وطورا علما موضوعيا مماثلا لغيره من العلوم ، وطورا نظرية المعرفة الذاتية . قد يكون الغموض الجذري الذي يتصف ويتسم به موضوع المؤلف هو الذي يكون الضعف الاجتماعي والعظمة الفلسفية للوضعية . على كل يمكن اعتبار ارتقاء الفلسفة الوضعية ترفيعا للفكر العلمي واعلاء للفكر الفلسفي ، وتدخل تبعية كافة العلوم الى علم الاجتماع وائتمارها به ، تدخل فكرة الفلسفة في الوضعية وتبعدها عن العلمية ، فالعلم يتحول الى فلسفة عندما يعاد تنظيمه من الداخل في سبيل نيل واجتزاء منفعته السياسية .

يمكن اعادة تنظيم المجتمع بكامله عندما تنجز الجمعية بين فكرتين ، فاستقرار المعرفة يضمن الاستقرار السياسي والاجتماعي .. ووحدة الفكرة لا تقوم بالنسبة لذاتها بل بالنسبة للانسانية ومصيرها الاساسي .

وهكذا دخل عنصر شخصي وفلسفي في نظرية كونت

وسيتسع هذا العنصر ويمتد في الجزء الثاني من فلسفة كونت بعد لقائه بكلوتيلد دو فو Clotilde de Vaux ويقول دوفولفيه Devolvé : « لقد تعمق كونت في تأملاته حتى بلغ درجة ظهر له معها عدم كفاية الفلسفة الوضعية لذاتها وبوجود خير اعلى او صلاح اعلى يدير التأمل الانساني .

الفصل الثاني

أسلاف أوغست كونت

يعترف أوغست كونت بوجود أسلاف له سبقوه ،
رغم انه يعتبر نفسه المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع ليس
لانه أوجد هذا العلم من العدم بل لانه دفع به من حالة
اللاهوت الى الوضعية . ويفي كونت أسلافه بصورة عامة
حقهم باستثناء سان سيمون ... فهو يمدح ارسطو في
مناسبات عديدة لانه رأى أن الانسان هو حيوان سياسي
بطبيعته ، اي انه يعيش في المدن ، ويعجب بهوبس Hobbes
فيكتب في المجلد الثاني من « النظام السياسي الوضعي »
« يشكل مبدأ هوبس الشهير حول الخضوع البديهي للقوة
الخطوة الاساسية الوحيدة التي خطتها نظرية الحكم
الوضعية منذ ارسطو حتى يومنا هذا » . ويعترف كونت
بتأثير علمي الاجتماع المتناقضين عليه ، علمي الاجتماع اللذين

يتوجب جعلهما مكملين لبعضهما البعض بتجاوزهما . علم اجتماع النظام الذي يمثله بونالد Bonald وميتر Maistre والذي يعنى بالحالة اللاهوتية ، وعلم اجتماع التقدم الذي يمثلـه بصـورة أساسيـة مونتسكيـو Montesquieu وكونكورديه Concordet والذي يعني بالحالة الماورائية.

واخيرا هناك قضيـة تأثير سان سيمون الواضـح والمباشر التي ينكرها كونت ، وهي قضية واضحة ومعروفة الوقائع .. لقد عمل أوغست كونت سكرتيرا لسان سيمون في الفترة الممتدة من آب من العام ١٨١٧ حتى عام ١٨٢٤ أي انه بقي معه قرابة السبع سنوات من التاسعة عشر من عمره حتى السادسة والعشرين . في اول الامر كان كونت يبـدو متأثرا تمامـا بسـان سيمون هـذا الكونت غـير الارستقراطي ، اللامع ، المليء بالافكار الجديدة والمبتكرة ، الذي يضع آلاف الرسائل والكتيبات ويعجز عن انجـاز كتاب واحد ، الذي يملك قدرة عظيمـة على الايحـاء .. فيكتب الى صديقه فالا Valat قائلا : « لقد تثقفت في فترة ستة أشهر من علاقتنا بصورة أفضل مما كنت سأنجزا خلال ثلاث سنوات أمضيها وحيدا .. انه انسان أصيـل وطريف وأنا أحمل له صداقة أبديـة وهو يكن لي حبـه لولـده . »

ولكن فيما بعد واثر قطيعـة عـام ١٨٢٤ لا يتحدث كونت الا عن « التأثير المشؤوم لصداقة منحوسة ، فقـد

عبقريته » ويأسف كونت في المجلد الثاني من « النظـــام السياسي الوضعي » لارتباطـه بعلاقـة مشوّومة بأحـد المشعوذين المختلين في المرحلة الاولى من شبابه » . فماذا حدث ؟ هل يكون كونت في النهاية تابعا متعمقا ومخالفا في الراي لسان سيمون ، ومنشقا طور العناصر العلميـــة لفلسفـة استاذه ؟

يبدو جليا تأثر كونت بسان سيمون في اتجاهه الـى التحليل الجدلي للفترة الممتدة بين القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، واعترافه بمعنى الثورة الفرنسية التاريخي، واهتمامه بالطبقات الصناعية والبروليتاية ، وتمييزه بـين المراحل « العضوية » والمراحل « الحرجة » هـذا التمييز المرتبط بشرح التناقض القائم بين العهد الجديد والمراحل اللاهوتية والماورائية . ولكن هذا لا يمنع من قيام خـلاف جذري بين حدس سان سيمون ومنهجية كونت فليس هنالك اي تشابه بين القاء فكرة جديدة وتعميقها وربطها بغيرهـــا من الافكار واستنباط فلسفة ويعتبر مالبرانش Malebranche سان سيمون، ولم يكن بوسعه ان يلعب اكثر من دور المنبه لهذا كونت فيلسوفا وسيطا أي مفكر عميـق ومنهجي . لعبه سيمون ، ولم يكن بوسعه ان يلعب اكثر من دور المنبه لهذا الشاب الذي اخذ في البدء ولكنه عاد وابتعد مختارا طريقه الخاص لانــه يملك طبعا ومزاجـا مختلفين . وكما نبـه كورفيتش Gurfitch يتعدى الفرق بين سان سيمون

وكونت ويتجاوز الفرق بين السطحية والتعمق ، فكونت لم يكتف بتطوير ومنهجة افكار استاذه فقد تباين دربا الرجلين في الواقع منذ البداية حتى صعب علينا ادعاء تفوق احدهما دون الآخر .

يقول علم الاجتماع لدى سان سيمون ، رغم ضعفه ونقصه ، بسيطرة التقدم على النظام بينما يقول علم الاجتماع لدى كونت بسيطرة النظام على التقدم .. ويميز سان سيمون بوضوح بين المجتمع والدولة التي يعتبرها مكتسبا دائما للفلسفة الاجتماعية ، واشرافا دائما على العلاقات بين الانسان والطبيعة ، وعلى دور العمل الذي يحكم الوضع السياسي والاجتماعي - وقد برهن كورفيتش تاثير هذه الافكار على علم الاجتماع لدى ماركس - . يبدو ان سان سيمون ، اذا استعملنا عبارات حديثة ، احد اوائل مؤسسي ما نسميه اليوم « حضارةالعمل » بينما يتجه كونت الى العكس تماما آخذا بعناصر تجعله يتناقض بصورة أساسية مع ليبرالية سان سيمون المنظمة غير الفردية : كاقامة الوحدة المطلقة ، وتأكيد استقرار التسلسل ، وكراهيته لكل محاولة ترمي الى تحقيق المساواة ، وتعبده واجلاله للدولة ، وتركيزه كافة قوى المجتمع بها ، ومفهوم العائلة التقليدي بانها « الخلية الاجتماعية وصورة المجتمع المصغرة » ، يهتم كونت ويعنى دائما بمسائل التبعية والتسلسل بينما يدعو سان سيمون الى التنظيم اللامركزي واستقلالية المجتمع الاقتصادي وزوال الدولة السياسية

وينادي بالمساواة العقارية بين الرجال المتعاونين في تنفيذ سياسة عمل عالمية ، سياسة يتعاضد فيها الناس على استثمار الكرة الارضية بكاملها بدلا من استغلال الانسان لاخيه الانسان .. وهكذا يمكننا القول بوضوح ان الاختلاف بين كونت وسان سيمون مزدوج : الاختلاف الاول اكثر عمقا والثاني اكثر تقدمية ..

من الطبيعي ان يتأثر كونت كما يقول بعلم اجتماع النظام وعلم اجتماع التقدم . فعلم الاجتماع يمر كغيره من العلوم في ثلاث مراحل وهي اللاهوتية والماورائية والوضعية، والمرحلة الوضعية هي تكملة للمراحل السابقة وليست نفيا لها . ويحتفظ علم الاجتماع الوضعي بكل ما في علم اجتماع النظام وعلم اجتماع التقدم من ايجابية وتأخذ خلاصة هذين العلمين المتصارعين المتنافيين . ولا يتمكن كونت من المحافظة طويلا على التوازن بين علم اجتماع النظام وعلم اجتماع التقدم فهو يرنو ويميل كلما تقدم في الدراسة الى علم اجتماع النظام المتناسب مع طبعه الذي يحب التلاحم والاستقرار ويكره الفوضى ..

وكما يعتبر كونت فلسفة كل معرفة تعنى بالوحدة يعتبر ايضا صالحا كل نظام حكم يضمن النظام أي يحافظ على بعض الاشتراكية بين المواطنين ويحقق الوحدة الوطنية . . ويعتقد كونت بسرعة زوال الرابطة الاجتماعية اذا لم تتوفر وحدة الفكرة ، فلا مجتمع حقيقي دون اشتراكية في الافكار

والعواطف على خلاف دوركهايم Durkheim الذي يعتقد بامكانية ارتكاز الرابطة الاجتماعية على السواء على التضامن الآلي حيث يعمل الجميع ويفكرون وعلى التضامن العضوي حيث ينشأ الاتفاق عن تقسيم العمل والتخصص في المهمات .

وقد برهن دوركهايم في كتابه « حول تقسيم العمل » ان تنظيم العمل هو الذي يدفع من التضامن الآلي الى التضامن العضوي ويؤدي اليه . ففي المجتمعات البدائية يشعر ويفكر ويتصرف الجميع وفق نفس الطريقة : فالاتحاد يرتكز على تشابه السرائر ، وهم يجهلون مفهوم الفردية لان كافة الافراد يتحدون في اطار نموذج جماعي واحد : فالتضامن ينتج عن الامتثالية المطلقة ، لهذا يعتبر دوركهايم مجزأ هذا الطراز من البنى الاجتماعية المكون من اجزاء مشابهة لبعضها البعض ويعتبر تضامنا آليا الوحدة الناتجة عن تطابق السرائر ..

مع تزايد الحاجات يضعف التشابه وتتزايد التناقضات ، ويزول التوافق مع تعاظم المجتمعات ، بكلمة واحدة يمكن القول ان التضامن الاجتماعي يصبح أكثر تعقيدا وأكثر ليونة بفضل تقسيم العمل : فلا يعود الاتحاد ينتج عن تشابه الافكار وتطابق العواطف بل عن حاجة الافراد بعضهم الى بعض ، وهذا ما يسمى بالتضامن العضوي ، بعد ان اصبح المجتمع مكونا من اعضاء متناسقة فيما بينها وخاضعة الى بعضها البعض ، اعضاء تتكون

من عناصر متباينة ، يختص كل منها بوظيفة معينة كما لدى الكائنات المتقدمة ، لا من أجزاء متجانسة ، ومن فقرات كالدود من الحيوانات ، او كحشائش الطوخ من النباتات .

ويدعي كونت العكس فهو يعتبر ان قيام المجتمع يفترض بصورة اساسية وحدة في الافكار والعواطفويرى ان تقسيم العمل يتناقض مع هذه الوحدة كما يتناقض التخصص في البحث العلمي مع التلاحم الذهني : فهو يفصم عرى الروابط بين المواطنين ، ويترك التمادي في تقسيم العمل تأثيرا هداما ، ويتحول الى مصدر للتفتيت والتفكيك ..

ولا يزعم دوركهايم بان تقسيم العمل يؤدي دائما الى تعاون الوظائف فهو قد يأتي فوضويا على غير المطلوب ، وهذه ظواهر استثنائية ، مرضية بينما يعتبر كونت الاستثناء هو القاعدة فما ان يبلغ تقسيم العمل (الذي تنبأت به عبقريته في بداية الثورة الصناعية) بنظره درجة معينة من التطور حتى يؤدي الى الخلافات الفردية والتفكك الاجتماعي .. وهذا ما يفسر لنا اطراء دوركهايم لنوع من « الحرفية » التي لا يستسيغها كونت .

ولا يود كونت العودة الى عصر العموميات الى ما يسمه هو نفسه « بالغموض وعدم التمييز البدائي » ويطالب لمكافحة التبدد الناتج عن ضرورة تقسيم العمل ، بانشاء وظيفة خاصة في الجسم الاجتماعي ، وظيفة تتمثل بعضو

مستقل هو الدولة او الحكومة : ومهمتهـا المحافظة علـى وحدة المصلحة العامة وسط تناقضات المصالح الفرديـة .. وقد طالب كونت منذ البداية « بتوطيد النظـام العـام » وتصعيد « التبعية السياسية » وتقريبها من كثافة «التبعية العائلية » . ويمجد كونت « ديكتاتورية السلطة الزمنية » سواء مارسها الملوك او الدستور ويعلن عن اعجابه العميـق « بالعقيدة الصحيحة » بسلطة الدولة المطلقة لدى هوبـز وبوسييه Bossuet .

ويتسم مفهوم كونت لوظيفة الدولة بالوضوح فمهمتها هي الوقاية من التفكك الناتج عن تقسيم العمل الاجتماعي ، واعادة الروابط بين العمال المقسمين حسب اعمالهم كمـا تقيم الفلسفة الوحدة بين العلوم المختصة . وتأتي هـذه الوحدة في الحالتين من الخارج فهي مفروضة فرضا ..

حدد كونت بعبارة شهيرة موضوع الفلسفة : يجب ان نجعل من دراسة العموميات اختصاصا مهما جديدا ... الامر الذي يعني ان الفلسفـة تستحصل من العلماء علـى نتائج علومهم العامة فتربطها فيما بينها وتوجد وحدتها . ونفسر هذا القول بعكسه بمقارنتـه مع موقف برغسـون Bergson المناقض الـذي يعتبر ان الفلسفـة تتمثـل ، ضمنيا على الاقل ، في المعرفة العلمية ويقول ان تطلب مـن الفيلسوف القبول باستنتاجات العلماء كما هي ، معناه ان تفرض عليه فلسفـة معينـة ، معنـاه القضاء عليـه

كفيلسوف ... اضف انه لا يمكن اعتبار العموميات من الفلسفة ، لا بد ان يكون الفرد مختصا بالعلم لا للاطلاع على اكتشافاته فقط بل للمساهمة في فكره من الداخل ، وفهم منهجيته بممارستها . ليعمد الفيلسوف فيما بعد الى دراسة قضاياه الخاصة . اذن للفلسفة استقلاليتها رغم انها تفترض تجربة علمية مباشرة ..

وتمثل الفلسفة بنظر كونت ، بالنسبة للعلوم ما تمثله الحكومة بالنسبة الى المجتمع بمجموعه ، وهذا هو السبب الذي يجعله يعطي الفلاسفة ـ الوضعيين طبعا ـ حق ادارة المدينة : لانهم وحدهم قادرون على تبين وحدة المعرفة رغم تعدد العلوم ، وحدهم يمكنهم المحافظة على الاشتراكية الفكرية والاخلاقية لدى المواطنين تلك الاشتراكية التي لا يقوم المجتمع الحقيقي بدونها . ويعتبر كونت كأفلاطون ، الفلاسفة جديرين بتولي مناصب الرئاسة ، فالمعرفة هي اساس السلطة سواء تعلق الامر بتأمل الافكار او معرفة مجموع الفلسفة الوضعية .. وهكذا نفهم السبب الذي يدفع أوغست كونت الى تفضيل علم اجتماع النظام على علم اجتماع التقدم .. « يضمن علم الاجتماع اللاهوتي كعلم الاجتماع الوضعي وحدة واشتراكية العواطف ، وهو : علم الاجتماع العضوي وفق مفهوم سان سيمون » ..

يعلن كونت في الكتيبات التي وضعها أثناء ممارسته وظيفة سكرتير لسان سيمون بوضوح : لا يمكن توحيد

النظام الفكري الا بوسيلتين : اما ان نعيد للفلسفة اللاهوتية النفوذ الذي فقدته ، او باكمال الفلسفة الوضعية حتى تصبح قادرة على الحلول مكان اللاهوت . . هذا هو السبب الذي يدفعه الى مدح ما يسميه « سمو التفوق الفلسفي في مؤلف ميتر Maistre » عندما يؤكد القول في نهاية فلسفته في الجزء الثالث من « نظام السياسة الوضعية » « لقد تجاهلنا طويلا وتنكرنا للمدرسة الخالدة التي برزت في بداية القرن التاسع عشر مع ميتر Maistre والتي اكملها بونالد بمساعدة شاتوبريان Chateaubriand الشعرية » .

كما نقرأ هذا التحديد في الفصل السادس والاربعين من « بحث في الفلسفة الوضعية » : « انا لا أخشى الاعتراف بكل شكران ودون التعرض للاتهام بالتناقض ، بتأثير الفلسفة الكاثوليكية الشافي ، رغم طبيعتها الرجعية ، على التطور الطبيعي لفلسفتي السياسية وخصوصا معاهدة Dupape الشهيرة لا شك ان كونت يريد القول انه قرأ او ـ اعاد قراءة ـ لو ميتر le Maistre بعد قطيعته مع سان سيمون وان تأثير علم الاجتماع اللاهوتي او التقليدي عليه كان اعظم وابعد مدى من تأثير المبادىء الاجتماعية التي يعتنقها سان سيمون ويقول بها .. ويعني وصفه الفلسفة الكاثوليكية بالرجعية انها تقيم وحدة الافكار وتبنيها على اساس خاطىء . فتقدم العلوم يفتت هذه الفلسفة الكاثوليكية شيئا

فشيئا ، فوظيفة علم اجتماع التقدم تهدف الى محاربة هذه الافكار الخاطئة وهدفها ، فاتحة المجال لمجيء علم الاجتماع الوضعي .. ولهذه المهمة مهما بدت ضرورية مظهر ضار لانها سلبية : فهي تهدم وتعجز عن اعادة التعمير a لذا نأمل ان يتم هذا العمل الحرج باسرع وقت ممكن .

يزرع علم الاجتماع الماورائي الفوضى في الافكار عند قيامه بمهمته التاريخية ، فهو يهدم الخطأ ، وهو خطأ نافع طالما بقيت الانسانية عاجزة عن الارتقاء الى المعرفة الوضعية للظواهر الانسانية ، يهدم الخطأ ويعجز عن استبداله بالحقيقة ...

ويحقق علم الاجتماع الوضعي الوحدة بين القلوب والافكار كالفلسفة اللاهوتية ولكنه يبنيها على الحقيقة .. وهنا نجد التشابه العميق بين الوضعية والتقليدية ـ فالتقليدية تعترف بثلاثة تأثيرات : تأثير الوقائع ، كلمة الله ، التي يفرضها العلم وهنا تكون المعرفة متعلقة بالدين. تأثير المجتمع بالحقائق الاخلاقية والسياسية التي لا تبرهن فلسفيا لانها هبة الوحي القديم تتناقله التقاليد . تأثير السلطة الروحية الكنسية فيما يختص بحقائق الدين المسيحي .. لقد هدفت المدرسة التقليدية الى احلال بداهة السلطة مكان السلطة البديهية واعتمد برنامجها على تفاعل ثلاثي : التجربة ضد المنطق ـ المجتمع ضد الفرد ـ النظام ضد التقدم . وقالت بتوجيه انتقاد المنطق الفردي لكافة

الامور ، اعتبرت المنطق فرديا مناهضة كبار الكلاسيكيين الذين يقولون بعموميته وشموله ..

ويستغل بونالد تمييزا لمالبرانش ويحرفه فيفرق بين المعرفة عن طريق الفكر او الراي وهي شخصية ، والمعرفة التي تأتي عن طريق السريرة او العاطفة وهي عامة ــ فالشعور هو ما يتجسد : كالعواطف العائلية ، الوطنية والدينية التي تربطنا بعائلتنا ، بوطننا ، بكنيستنا اما الراي فهو كل ما يسبب الانشقاق : فهو اعتراض الفرد على الواجبات الاجتماعية . ويمكن القول وفق هذا المفهوم ان الايمان يرتكز على العاطفة العامة وعلى التقاليد لا على المنطق الخاص والآراء الفردية القابلة للنقاش وموضع النقاش الدائم .. ويؤكد بونالد ان تبرهن عن وجود الله هو ان تنال من الايمان به اي ان تجعل منه موضوع رأي موضوع نقاش ، يجب أن نؤمن بالله بالحس العام أي بالرضى ..

يقول رونوفييه Renouvier يجب ان يسبق الشك والايمان ، والايمان الحقيقي الوحيد هو ذلك الناتج عن تجربة الشك : فالمجنون والجاهل والطفل يؤمنون دون ان يبحثوا ، أي أنهم يستسلمون للتيه الذهني ولا يشككون بينما يقول التقليديون بالعكس ، أي بوجوب تقدم الايمان على الشك ، ويتبنى كونت هذا الموقف ، فنحن نجد لديه ما نجده لدى لوميتر من كراهية للشك ، ونفس الأعتراف بضرورة الايمان . ــ ولا شك باختلاف طبيعة ومفهوم

الايمان لدى لوميتر وكونت فهو يرتكز لدى الاول على الدين بصورة اساسية ويتخذ الطابع العلمي لدى الثاني .. ولكن الاختلاف ليس كبيرا بقدر ما يبدو اذا تذكرنا ان الدين هو نهاية الوضعية وان التقليدية تعترف بقيمة العلم شرط ان يقيم جذوره في الدين ـ فما هو مشترك بصورة اساسية لدى بونالد وكونت ولوميتر هو موقفهم الواحد من الايمان والشك ... فالتقليدي يرى في الشك معاداة للمجتمع .. « فالطبيعة لا تهتز عندما يشك الانسان ولكن المجتمع هو الذي يفنى » يجب اذن البدء دائما بالقول « انا اعتقد » .

وتدافع التقليدية عن الايمان الاول المباشر البديهي الذي يتناقله المجتمع : فمن طبيعة الانسان طلب العلم فهو كائن يتعلم .. واكبر جريمة تقترف ضد المجتمع هو الشك المنطقي بدلا من الالتفات الى تلقي دروس المجتمع « امتلاك افكار خاصة بدلا من الاخذ بالتقليد .

كذلك يكره كونت الشك ويعلن : « عدم الاعتراف بسلطة غير سلطة المنطق هو دليل فوضى ، لان المنطق يولد بصورة اكيدة الشك . الذي يؤدي الى الفساد الاخلاقي والفوضى السياسية .. ويتفق التقليديون والوضعيون مهما بلغت درجة عمق خلافاتهم ، يتفقون على كراهية انظمة الرأي التي تقوم على الانتخاب والاقتراع ، فكونت يعتبر مثل بونالد ان المنطق الانتقادي هو العدو الاكبر ، فهو غطرسة

الفرد يواجه الحقيقة الاجتماعية بفلسفته الخاصة الضعيفة والمترددة .. فالغطرسة والجنون شيئان متشابهان ، فهما سيطرة الفردية والذاتية على الجماعية والاجتماعيـة .. ويعتبر رونوفييه ان الجنون هو الخضوع للاغواء الذهني ، هو عدم الشك : انه افراط في الموضوعية ، اما كونت فيعتبر الجنون هو الشـك : افراط واسراف في الذاتية . ويقـي التواضع من الجنون فكما يقول بودلير هناك مجانين بسبب العظمة لا بسبب التواضع . ويعلن « كتاب التعليم الديني الوضعي » : « الطفل الذي يصلي كما ينبغي يمرس جهازه الوسيطي بصورة افضل من دارس الجبر المتعجرف الذي لا يطور لنقص في الحنان والخيال ، الا عضو الكلام وفق لغة خاصة ، لغة حدود استعمالها ضيقة . ويدعي كونت انه وقع بنفسه ضحية ازمة جنون عابرة ويحللها قائلا بانها تراجع الى الحالة الماورائيـة ثم الى الحالـة اللاهوتيـة ويفسر شفاؤه بأنه عودة الى الحالة الوضعية .. فالتواضع ليس فقط فضيلة اخلاقية ، انه فضيلة الذكاء التي لا يمكننا بلوغ الحقيقة وبدونها فهي الموضوعية المجردة الخضـوع للشيء ..

ويمكن اعتبار فلسفة كونت من وجهة النظر هذه انها نفي لكل فلسفة نفسانية ذاتية ..

لقد قلنا في السابق وسنبرهن فيما بعد ان كونت قد الحق الجدل الشخصي بالجدل الموضوعي (وينتمي الجدل

الذاتي لديه الى الانسانية لا الى الفرد) فنفيه علم الذات ، علم النفس ، المنقسم بالتساوي بين علم الاحياء وعلم الاجتماع نفي للانسان نفسه . لقد اتخذت كافة المعارف الطابع العلمي لديه وفهم العلم على انه خضوع للموضوع ، الى سلطة الموضوع الكاملة وحسب المفهوم السارتري الوضعية هي أصفى تعبير للفكر الجدي : فلم يسبق لاية فلسفة ان تجردت الى هذا الحد من التهكم والدعابة . حتى ان الايمان بمعناه العميق ، الايمان بوصفه التزام الفرد وارتباطه قد استبعد بصورة جذرية : ففي قتل الشك تقويض للايمان ، فلا يبقى الا نوع من الايمان اي نوع من الثقة الالزامية ، اذا صدقنا القول ، بالافراد الكفوئين ، في العلماء ، واقصاء لمفهوم الحلم ، فلا يعود الفرد يتسامح مع الخطأ لانه يعرف الحقيقة ويؤمن بمالكي المعرفة ..

عندما يصبح علم الاجتماع علما يصبح علم السياسة الذي يرتكز عليه علما هو الآخر فيتكون لدينا فريقان،الفريق الاول ويضم هؤلاء الذين يملكون الحكمة يثق ويؤمن بهم الفريق الثاني ، الفريق الذي لا يعلم . بتحويل الشك الى ذبذبة للفكر وتأرجح بين الآراء المختلفة ، باسقاط الشك الارادي ، وهو اختيار ذاتي وبحث عن الصدفة المنطقية لا نقضي في نفس الوقت على الايمان بوصفه التزام الذات الحر .. الشك والايمان متضامنان : بانكار الاول ننكر الثاني ونشوهه . لقد حول التقليديون الايمان ، عندما رغبوا

الحفاظ عليه بالقضاء على الشك الى نوع من الايمانية الاجتماعية ، الايمانية التي تستخف وتتجاهل كل ايمان حقيقي ..

يكمن ضعف الفلسفة التقليدية والفلسفة الوضعية ، رغم تفوق هذه الاخيرة الفلسفي العظيم ، في تجاهلهم المشترك للتفكير والتأمل ..

الفصل الثالث

نقد الاقتصاد السياسي

اليس غريبا ذكرنا للاقتصاديين ضمن اسلاف أوغست كونت : علم الاقتصاد السياسي هو العلم الذي اجتهـد منذ آدم سميث لتحقيق امنية كونت . فهو يدرس العلاقات الاقتصادية بين الناس كما تدرس الاشياء . ويدعي انه علم اجتماعي . وقد تعرف مؤسس الوضعية الى هذا العلم وكان قاسيا في حكمه عليه ، فقد أنكر هذا الرجل الذي اعتاد انصاف اسلافه انكر كونت معتنق الوضعية التي تجل كافة عظماء الاقتصاد السياسي وحكم بعدم نفعه واعتبر الاقتصاديين معادين للمعرفة الحقيقيـة . فالاقتصادي لا يملك فكرا وضعيا بل على العكس من ذلك هو نموذج للفكر الماورائي في كل اوهامه وسلبيته. فهو يطرح قضية العلاقات بين المعرفة والاخلاق ، قضية العلاقات بين الفكـر العامي

والاخلاقي ، الفلسفي والديني ولا بأس من ذكر انتقاد كانت Kant للاقتصاد السياسي لفهم انتقاد كونت بصورة افضل .

يعتبر كانت Kant ان الاقتصاديين يودون جعل علمهم علما للوقائع الاجتماعية ، علما يحلل الوقائع يصنفها ويكتشف قوانينها دون الانتباه للاعتبارات الاخلاقية والتقيد بها . علما يفسر كافة الامور بالبحث عن المنفعة الخالصة ، بتوازن المصالح وقانون العرض والطلب .. يعتبر كانت Knat هذا المفهوم لا أخلاقي، فاللاأخلاقية وحدها ترضى بمواجهة قضايا السلوك بصرف النظر عن موجبات الضمير ودون أي تمييز بين الخير والشر . تأتي الاخلاق في الدرجة الاولي لدى كانت فهو من اوائل فلاسفة القيمة في الفلسفة الحديثة فهو يميز ويناقض بين الاموال الاقتصادية التي تملك ثمنا ولا تملك قيمة وبين الاموال المعنوية التي تملك قيمة وتفتقر الى الثمن ... وبوسع كل اقتصادي معاصر ملاحظة افتقار الاقتصاد السياسي الى مفهوم القيمة ، مما يوجب علينا عدم الخلط بين الثمن والكرامة فالشيء يملك ثمنا عندما يكون بالامكان استبداله بآخر معادل بينما نعجز من ايجاد بديل للكرامة التي تسمو فوق كافة الاثمان . يملك الاشخاص وحدهم قيمة بينما ينحصر الثمن بالاموال، بكلمة أخرى يمكن القول باسناد مفهوم الكرامة والقيمة الى الحرية ..

ينتمي الانسان الى عالمين عالم الطبيعة بوصفه كائنا ماديا وعالم الحرية بوصفه كائنا عاقلا . والاخلاقية هي خضوع المادية الى المنطق والحرية هي نفاذ وتوغل النظام الجذري في النظام التجريبي . يقتصر الاقتصاد السياسي على المادية فهو يدرس الانتاج وتوزيع الاموال المادية وهنا تكمن منفعته شرط بقائه تابعا للاخلاقية كما يأتمر الحس بالمنطق . فعلم الاخلاق هو الذي يوحي الى كانت بانتقاد الاقتصاد السياسي لتجنب الخطر الاكبر الكائن في وعد علماء الاقتصاد الانسان بنوع من سعادة الطبيعة سعادة الحس ، متجاهلين قيمة الشخص الانساني الاخلاقية . ان تعد الناس بسعادة حسية مجردة ، ان تجعلهم يتوقعون معرفة قوانين الطبيعة من خلال لعبة بسيطة هو ما تسميه « النقدية » « بالتفاؤل الساذج » اضف ان هذا التفاؤل يتجاهل الشر ويبني العلاقات الانسانية على المنافسة دون ان يعي ان المنافسة هي الصراع والحرب هي الشر نفسه . ويعتبر كانت الدافع الذي يرده الاقتصاديون الى المنافسة ويتوقعون منه ان يفجر ويعمم الخير العام يعتبره تعبيرا عن الشر الاخلاقي ومنبعا للشر الشامل .

يلتقي كونت في انتقاده الاقتصاد السياسي مع كانت في نقاط عديدة رغم اختلافهما العميق .. فكونت يهاجم العلم الاقتصادي لاعتبارات علمية لا لاعتبارات اخلاقية

فبرايــه لا يمكن اعتبار الاقتصاد علما لانه لا يأخذ بالفكــر العلمي . ونجد لدى كونت مجموعة من الانتقادات الخاصة التي لا تزال تحافظ حتى اليوم على أهميتها .. فهو يأخذ على الكلاسيكيين ما يسمونه « بالتخليــد » فهم يعطــون قوانينهم قيمة مطلقة بينما « كل شيء نسبي » وهذا الانتقاد الذي يعود اصلا الى سان سيمون مميز : فهو يقضي بانتقاد الاقتصاديين لعدم تفهمهم المعنى التاريخي وتجاهلهم قيمة الوقت في السياسة الاقتصادية ولتناسيهــم ان العالــم لا يؤخذ خارج تاريخــه الخاص ولخطئهم باستعمال المنهجية التصوريــة . .

يعتقد الاقتصاديون بالتوافق مع الفكر العلمي رغــم اهمالهم التجربة واستعمالهم الطريقــة الاستنباطية التي لا تفيد الا في الرياضيات . وهكذا نجدهم ينكرون ذاتية كــل علم ويقلبون نظام التصنيفات ..

وتستمد هذه الاعتراضات قوتها ومعناها مــن روح الفلسفة الوضعية اذ انه لا يمكن فصل اي علم عن مجموعة المعرفة الانسانية ، عن نظام العلوم العام . ولا يمكن ان يتم التقدم العلمي بصور مستقلة عن الارتقاء الفلسفي ، ولا يمكن فهم اي علم بعيدا عن دوره في المجموعة ، ويصح هذا الدور بالنسبة لعلم الاجتماع .

تعني الوضعية اشياء كثيرة لاوغست كونت ومــن جملتها ضرورة تحديد العلم اي انه يعتبر انه لا مغزى العلم

الا بتحديده من الحالات الثلاث ومن فلسفة التاريخ .
وتعتبر فكرة اقامة علم وضعي يدرس الوقائع الاجتماعية خارج المجموعة الوضعية فكرة مضحكة ومتناقضة اذ انها تفترض عدم امكانية قيام علم اقتصادي لا يهتم بدراسة الانسان الاخلاقية والفكرية ، فالاقتصاد السياسي تابع للجمال ..

لمزيد من الوضوح لا بد من التمييز بين نوعين من الانتقادات الاساسية التي يوجهها كونت الى « ما يسمى بعلم الاقتصاد » الانتقادات الاولى علمية والثانية فلسفية ؛ وهما متكاملان لانه لا يمكن فصل العلم عن الفلسفة. يفترض الانتقاد الاول اقامة مفهوم من العلاقات بين الفكرة العادية والفكرة العلمية والفكرة الفلسفية ، ففيما يعتقد الكثيرون مثل سبينوزا وبرونشفيغ Brunchvieg بوجود خلاف بين المعرفة العادية والمعرفة العلمية لا بد معه من تحويل في الاتجاه وارتداد حقيقي للانتقال من النوع الاول الى النوعين الثاني والثالث ، يتخذ كونت موقفا مناقضا ويجهد في تبيان نهل هذه الانواع الثلاثة من معين واحد وتأكيد اختلافها في درجاتها فقط . « فمهما ارتفع العلم وتجرد يبقى امتدادا للعقل السليم والادراك العام المشترك » ويكتب كونت في « التعالم الوضعية» : « ستزول يا ابنتي هذه الحرة الشرعية بالاهتمام بالمعرفة الفطرية التي تهيء وتسند الدراسات المنهجية . فالمعرفة هي دائما امتداد للحكمة العامة وهي لا

تخلق ابدا مذهبا اساسيا ، فالنظريات تكتفي بتصميم وتنسيق ملاحظات المنطق العام التجريبية لتعطيها مضمونا وتطويرا لا يمكن الاستحصال عليها بطريقة مختلفة » . وترتبط وجهة نظر كونت هذه بمفهومه للفلسفة الوضعية الاساسية للفكر الانساني ، وترتبط بالنتيجة بنظريته حول التقدم الذي لا يمكن اعتباره خلاقا لكونه مجرد تطوير للنظام القائم . وتعتبر نظرية المعرفة لدى كونت واقعية بصورة اساسية . اذا يتوجب علينا معرفة النظام الموضوعي القائم اي معرفة العلاقات المنظمة للوقائع كما هي ووفق معطياتها ، فلا بد من « تحويل الذهن الانساني الى مرآة دقيقة للنظام الخارجي » واذا كان سبينوزا وبرونشفيغ Brunehvieg يقولان ان الرياضيات هي معلمة الفكر الانساني فان كونت يعتبر ان علم الفلك هو معلم الفكر الانساني ومثقفه ، فعلم الفلك يشعر الانسان بالنظام الخارجي المفروض عليه والذي يعجز عن رده وكثيرا ما تراود هذه الفكرة الان « ما كان علم الفلك لينشأ لو تمكنا من العبث بالنظام الشمسي وتحويره فالدرس الاول الذي يعلمنا اياه الفلك هو وجوب تأملنا فلكيا كل شيء » لقد تعلم الانسان التأمل من النجوم او حسب اصل الكلمة التدقيق . يقول الآن : « دقق ففي جذور هذه الكلمة معلمتنا النجوم معلمتنا لانها بعيدة عنا ولان سعادة الحكم لا يشوهها هيجان الاخذ » .

لا شك ان كونت يريد ان يعرف ليعمل الا انه من

الواجب ان تسبق المعرفة كل عمل ، وعلينا الا ننسى اننا نزداد قدرة على الظواهر كلما ازداد تعقيدها ، الا أن أصعب ما فيها معرفتها الالزامية المسبقة « يعبر ذكاؤنا عن حريته الكبرى عندما يصبح ـ وفق نهايته الطبيعية ـ مرآة صادقة للنظام الخارجي رغم البواعث الفيزيائية والاخلاقية التي تحاول بلبلتها . » يوجد في كل نظام ظواهر بسيطة ذات تنظيم مثير لا تضطر معه الى تدخل اية ارادة وسيطة ، لقد استوحى الانسان من هذه الظواهر فكرة واقعية ايجابية وقد نشأ العلم عن هذه الظواهر « مؤشرات الحس العام العادي المحقة هي نقطة الانطلاق في كل تأمل علمي حكيم » هنالك اذن عدد من العلاقات البديهية التي يلتقطها فورا الذهن الاقل تطورا ليكون مرآة لها ، ويكون التقدم العلمي بتطبيق هذه التفسيرات الوضعية اعتبارا من الظواهر الهينة الى الظواهر الاكثر صعوبة . اما علم الاقتصاد فقد سلك الطريق المعاكس ، وقد اخطأ بنفي الملاحظات البسيطة التي انطلق منها بتدقيقها كما يقول كونت ، او بتغطيتها « بالطلاء العلمي » حتى اصبحت المفاهيم الواضحة غير مفهومة بالنسبة للرجل العادي الذي استنبطها لاول مرة .الاقتصاد السياسي هو الحس العام مقلوبا ، فبدلا من ان يكتشف هذا العلم قوانين جديدة اختلس القوانين القائمة البسيطة وصبغها بالغموض . آدم سميث وحده جدير بالمديح لانه اقام الاقتصاد السياسي على مفهوم واضح لا على مصلحة هذه الطبقة او تلك ، شيده على المفهوم الواضح لمصلحة

الجماعة العامة بكاملها . وقد تقهقر علم الاقتصاد بعد آدم سميث بدلا من ان يتقدم وهو يعاني اليوم من الفلسفـة الكلاميـة (فهي في قمة جمودهـا) التي تعنى بالمناقشات الماورائية . يملك العقل السليم فكرة بسيطة واضحة من مفهوم القيمة ولكن منذ ناقشها علم الاقتصاد لم يعد احد يعرف المقصود بها . فهؤلاء الذين يتناولون العلم الاقتصادي ليسوا من العلماء بل من المحامين او الادبـاء او مدرسي البلاغة البعيدين عن كل تفكير علمي . اذن الاقتصادي هـو الفيلسوف الماورائي في اسوأ ما تحمل هذه الكلمة من معاني، الفيلسوف الماورائي الذي نجـح في اعتـاق معرفتـه من الوضعية التي كانت تملكها في البدء .

والانتقاد الثاني اخطر من الاول فهو يعتبر ان العلم الاقتصادي ليس معاديا فقط للروح العلمية بل معاد لروح الفلسفة ايضا فطبيعة الموضوع في الدراسات الاجتماعيـة تتطلب « التضامن المتبادل والتلازم الجذري » .

تختص التجزئة المنهجية بالعلوم غير العضوية الا انهـا غير قابلة التطبيق على علم الاحياء او علم الاجتماع ففي علم الاحياء تبرز افكـار الموافقـة والتسلسل والبيئة وشروط الحياة والتنظيم والعمل ولا معنى لاي ظاهرة احيائية اذا قيست منفردة . فهي لا تفهم الا بالنسبـة للكـل وتعرف الكائنات الحية بصورة افضل كلما تعقدت : لا بد من دراسة الانسان لبدء علم الاحياء .

وتبدو هذه النقطة الاساسية في علم الاجتماع. فكونت يعتبر انه لا يمكن للانسان الفردي ان يكون موضوع العلم الانساني . فقد جعلت الحياة الاجتماعية ممكنا التطور غير العادي للوظائف الفكرية والاخلاقية لدى الانسان ، وهذا التطور هو تحديد الانسانية .. والفَرق القائم بين الحيوانية والانسانية هو فرق بالطباع فرق لا يقاس بالدرجات، هو فرق بالحضارة لا فرق بالقدرة . فما يميز الانسانية هو انها تملك تاريخا او انها تاريخ . وهي كذلك بسبب وجود « تأثير تدريجي ومستمر من الاجيال الانسانية على بعضها البعض، ويمكن القول وفقا لاحدى مقارناتغوييه Gouhier الايحائية» تاريخ النوع ظاهر لكل منا وهو مدون فينا كتاريخ الفرد ووفقا لقول برغسون Bergson : « التاريخ هو الانا العميقة » .

الحيوان هو الوراثة اي انه الانتقال غير الواعي للصفات الفيزيائية ، اما الانسان فانه تربية ، أي انتقال واع للميزات الفكرية والاخلاقية فمن طبع الانسان ان يقدم على العلم . ولا يكفي علم الاحياء وحده لمعرفة الانسان فلا بد لدراسة الانسان من اكتشاف طريقة جديدة لعلم جديد هذه الطريقة هي وسيلة الملاحظة التاريخية وهذا العلم الجديد هو علم الاجتماع . ووسيلة الملاحظة التاريخية ليست الا التحليل الكامل للانسانية ، ولا يقوم علم الاجتماع دون هذا التحليل الكامل . وهكذا يظهر جليا الاقتصاد السياسي

الجذري فهو يقتضى خلق « رجل اقتصادي » مستقل عن الانسان الفكري والاخلاقي اي تجاهل الرابطة التي تربط النشاط الفكري لاحد الشعوب بنشاطه الفكري وحياته الاخلاقية . ولا يمكن تحليل اقتصاد المجتمع او صناعته بصورة ايجابية وضعية بغض النظر عن تحليله الفكري والاخلاقي والسياسي في الحاضر والمستقبل على السواء ويتنكر الاقتصاد السياسي للوضعية في النقاط التي يدّعي فيها الايجابية .

برهن الاعتراض الاول انه قد اسيء درس الاقتصاد السياسي وهو خطأ خطير ، الا انه بالامكان اصلاحه . خطأ الاقتصادي الجذري هو عزلته هذه العزلة التي يطالب بها ليشكل علما .

ولا تكفي دراسة علم الاقتصاد بصورة ذكية وتخليصه من كنهه الماورائي لحل المشكلة، فادعاؤه بتشكيل علم مستقل يكتفي بدراسة ما هو اقتصادي في الانسان هذا الادعاء معاذ للعلمية والفلسفة .

« فكل دراسة منعزلة عن العناصر الاجتماعية المختلفة تكون بسبب طبيعة العلوم غير جذرية وتكون عقيمة كمثل الاقتصاد السياسي » . عقيمة نعم هذه هي الآثار غير المردودة للمعرفة المنتحلة .

ولا يترك علم الاقتصاد اي اثر على المجتمع بينما ترى

الفكرة الاساسية للفلسفة الوضعية ان التدخل الانساني يكون ممكنا بصورة افضل كلما تعقدت الظواهر « فالنظام البديهي يصبح اكثر قابلية للتطور والتغيير كلما تعقد » . وتعتبر الظواهر الانسانية اكثر الظواهر تعقيدا لذا يجب ان يكون تأثير الانسان فيها اعظم . الا ان الاقتصاد السياسي لا يفتح المجال للتأثير الانساني لذا ينتقد كونت « ضلال وزيف الماورائية الاقتصادية التي تركت الصناعة الحديثة لبديهيتها الفوضوية غير المنظمة » .

لقد اعترف الاقتصاديون بالحاجة الى النظام في الشؤون الاجتماعية وهم محقون في ذلك . وهم يؤكدون على التوازن والانسجام ــ اي على النظام بالنهاية ــ اللذين يتوطدان بنفسهما في المجتمع . الا ان خطأهم يكمن بالايمان بهذا التوازن البديهي وبترك تحقيقه للصدف الفردية وبعدم العمل على دفع المجتمع الى الاستفادة من « فكر المجموعة ، اي حسنات المعرفة الحكيمة المنظمة المنسقة » . جاء علم الاقتصاديين عقيما لانهم تجاهلوا تطوير النظام انطلاقا من معرفته نفسها .

حدد اوغست كونت الفلسفة بأنها « الملمة » ولا قيمة للعلم اذا لم يندمج بهذه الالمامة ويحدد بالنسبة اليها . اذن يكون علم الاجتماع وحده ، وهو التحليل الكامل للانسانية في نظامها وتقدمها ، في كامل هيئته الحالية وفي كامل مستقبله يكون العلم الاجتماعي الحقيقي .

الفصل الرابع

النظام والتقدم

تأثر اوغست كونت بكل من علم الاجتماع اللاهوتي القائم على النظام وعلم الاجتماع الماورائي القائم على الفوضى فعمل على منهجة هذين المفهومين وتحديد علاقتهما .. ويبدو لنا الجمع الحاصل ولاول وهلة كأنه تجميع بسيط للمبدءين .. ولكن يكفي ان نطبق التمييز القائم في كافة العلوم بين الاحصاء والديناميكا على علم الاجتماع ، فنحصل من جهة على علم الاجتماع الاحصائي المعالج في الفصل الخمسين من « البحث في الفلسفة الوضعية » وهو نوع من « التشريح الاجتماعي » موضوعه « الدراسة الوضعية الاختبارية والجذرية للتأثيرات والتفاعلات المتبادلة التي تمارسها على بعضها البعض اجزاء النظام الاجتماعي المختلفة» فعلم النظام الاجتماعي يحاول اطلاق قوانين التعايش .

ونحصل من جهة اخرى على « الديناميكا الاجتماعية» التي تمثل بالنسبة للاحصاء ما تمثله الفيزيولوجيا لعلم التشريح . فعلم التقدم الاجتماعي هو الذي يحاول اطلاق قوانين الوراثة ..

مفهوم التقدم واضح فهو يقتضي تطوير التمييز الانساني او كما يقول كونت « ابراز الخصائص المميزة للانسانية بالمقابل للخصائص الحيوانية » وهكذا يدرس علم الاحصاء العناصر المتواجدة في كل مجتمع المكونة بعناية ، والتي تمنح الى حد ما الكائن الاجتماعي .. وتحلل الديناميكا الاجتماعية عوامل التقدم المختلفة وخصوصا « النمو السكاني الانساني الطبيعي » وتنبىء هذه الاهمية المولاة لما يسميه دوركهايم Durkheim التضخم الاجتماعي بعلم التشكل « المورفولوجيا » الاجتماعي .. ويعتبر اوغست كونت ان موضوع الديناميكا الحقيقي هو دراسة قانون تطور المجتمع الذي وضحه عام ١٨٢٤ وبينه بجلاء في الفصل الاول من البحث في الفلسفة الوضعية « وراعى فيه مرور كل من مفاهيمنا الاساسية ، كل فرع من علومنا في ثلاث مراحل نظرية مختلفة » : المرحلة اللاهوتية (الوهمية) المرحلة الماورائية (المجردة) المرحلة العلمية (الوضعية) وبكلمة اخرى يمكن القول ان الفكر الانساني يعمل وفقا لطبيعته في بحوثه فيستعمل ثلاثة سبل فلسفية ، ثلاثة طرق تختلف صفاتها وتتعارض بصورة

جذرية وهي النهج اللاهوتي ومن ثم النهج الماورائي وأخيرا النهج الوضعي .. ومن هنا تنشأ ثلاثة أنواع من الفلسفة او الانظمة العامة للمفاهيم التي تبحث في مجموعة الظواهر التي تتنافى وتقضي على بعضها البعض : الاولى هي نقطة انطلاق الذكاء الانساني الضرورية ، والثالثة هي حالة الذكاء النهائي الثابت ، اما الثانية فمهمتها انتقالية فقط ..

في الحالة اللاهوتية يتصور الفكر الانساني الذي يوجه بحوثه نحو جوهر الكائنات ، نحو الاسباب الاولى والنهائية للاثار التي يلاحظها ، نحو العلوم المطلقة يتصور ان الظواهر تتوالد عن التأثير المباشر والمستمر لبعض العوامل الخارقة ويعتبرها سبب الشذوذ الحاصل في الكون .

في الحالة الماورائية وهي تطوير بسيط للحالة اللاهوتية تحل القوى المجردة مكان العوامل الخارقة وهي وحدات حقيقية ملازمة لكائنات العالم المختلفة ، ومكونة بشكل تكون قادرة معه على توليد كافة الظواهر المشهودة التي يوجب تفسيرها ان تنسب الى كل كائن وتعزو اليه الوحدة المناسبة أخيرا يقع الفكر الانساني في الحالة الوضعية ، وبعد اعترافه باستحالة الوصول الى مفاهيم مطلقة ، يقلع عن البحث عن اصل وغاية العالم ، عن معرفة اسباب الظواهر وجوهرها ليهتم فقط باكتشاف قوانينها الفعالة اي علاقات الخلافة والتشابه الدائمة وذلك بالجمع بين المنطق والملاحظة .. ويصبح تفسير الوقائع بعد أن ردت الى

حدودها الحقيقية الرابطة القائمة بين الظواهر الخاصة المختلفة وبعض الوقائع العامة التي يتجه تقدم العلوم الى انقاص عددها ..

كتب كونت عام ١٨٢٢ حين كان لا يزال متأثرا بسان سيمون في « مخططه » يحدد المراحل قائلا : المرحلة اللاهوتية « العسكرية » المرحلة الماورائية « التشريعية » والمرحلة العلمية « الصناعية » البحث فتتعلق مراحل تطور المجتمع. فالبنى الاجتماعية الفوضوية تتناسب مع المعرفة اللاهوتية، والبنى الاجتماعية الاقطاعية تتناسب مع المعرفة الماورائية وتتطابق مع المعرفة الوضعية : البنى الاجتماعية و « الصناعية » (حسب مفهوم سان سيمون) . يسود علم الاجتماع بكامله قانون ديناميكي واحد ، الا ان كونت لم يكتف بالتقريب بين النظام والتقدم فربط بينهما وعمقهما وجعل من جدليتهما حافز فلسفته . فهو يعتبر هذين المفهومين مكملين لبعضهما البعض الى درجة انه لا يمكن الاخذ بالواحد دون الاخر . النظام يتجه الى تحقيق ذاته بصورة أفضل ، ويمتد ليشمل كافة الميادين ، وهذا ما يسمى بالتقدم الفعلي ، فالتقدم لا يتعارض مع النظام السابق فهو ليس الا امتداد ومدلول له . فالسلطة بمعناها الحقيقي لا تقتصر على النظام المانع للتقدم بل تقول بالنظام المتطور أي الرامي الى التقدم .. وتحديد العلاقات القائمة بين النظام والتقدم هو ابراز الجدلية الديالكتيكية التي تسود مجموع الفلسفة الوضعية .. ويرى كونت ان نهاية علم

اجتماع النظام وانتصار علم اجتماع التقدم تعود الى فوضى الافكار وان هذه الازمة المحتومة ضرورية فهي تحضر وتهيىء لاقامة علم اجتماع وضعي يرضي كل ما هو شرعي في القضايا اللاهوتية أي التقليدية ، والقضايا الماورائية اي الثورية .

يحتاج المجتمع الى كل من النظام والتقدم الامر الذي تعجز كل من المدرستين اللاهوتية والماورائية عن توفيره فهما تعتبراهما متعارضين على عكس علم الاجتماع الوضعي الذي يقول بتكاملهما . ومن الطبيعي ان يشعر البعض ، ازاء تطور الازمة الفكرية والاجتماعية ، بالحنين والرغبة في العودة الى تطبيق السياسة اللاهوتية التي تضمن النظام وتعمل على تطبيقه ، ولكن عبثا فكما يقول كونت في الفصل السادس والاربعين من « البحث في الفلسفة الوضعية » « لن يستتب اي نظام شرعي ويدوم الا بالتنسيق مع التقدم ، ولا يتحقق التقدم فعلا الا بتثبيت النظام » . ولن تستمر السياسة اللاهوتية طويلا حتى ولو لحقها حظ غير عادي ، وهو امر بعيد الاحتمال ، وعادت الى الحكم عن طريق الانقلاب فالقوى التاريخية التي قضت عليها في المرة الاولى ستعود وتقضي عليها مجددا . تكمن في الوضعية فلسفة التاريخ وهي فلسفة متطورة باعتبار ان التطور الانساني يتفاعل في اتجاه واحد . اذن تصور العودة الى السياسة اللاهوتية هو وهم طوباوي ، فهذه السياسة تخلفية رغم مزاياها القديمة .

وهنا تكمن النقطة الحاسمة لدى كونت فهو يعارض الفلسفة التقليدية رغم طبعه المحافظ ويتخذ منها موقفا مزدوجا : يعتبرها نافعة وضرورية في الماضي وضارة في الحاضر . تتميز بهذه الازدواجية في الرأي كل فلسفة التاريخ وكل فلسفة التقدم وذلك لان هذه الفلسفة تعاين الاشياء من ضمن اطارها التاريخي فكارل ماركس يتراوح موقفه من البورجوازية بين المدح والانتقاد العنيف. فهو يمتدح فيها الطبقة الصاعدة ، الطبقة المعادية للارستقراطية الراغبة في اعلاء العقلانية وترفيع الراسمالية ويمج فيها الطبقة المسيطرة الطبقة التي وقعت ضحية تملكها ، الطبقة التي تناوىء تقدم التاريخ الحالي القاضي بخلافة الاشتراكية للرأسمالية . كذلك يهاجم ماركس في نهاية البيان الشيوعي وبصورة اكثر جذرية من الراسمالية الاشكال المختلفة للاشتراكية الرجعية فهي رغم التقائها معه في نقاط متعددة تتمسك بالماضي وتهدف الى العودة اليه بدلا من التطلع الى المستقبل واستباق اللحظة الراهنة . وباختصار يمكن القول ان كونت يود بانصافه علم اجتماع النظام واشادته به تحديد وظيفته ودوره التاريخيين لا العودة اليه .

يمقت كونت علم اجتماع التقدم لسلبيته فهو يعتبر الماورائيات نوعا من التقهقر المجرد لعلم اللاهوت وقد كتب في « الكتيبات » يقول : « لم تعد الحكومة راس المجتمع الرامي الى توحيد الجموع وتوجيه كافة النشاطات نحو هدف مشترك » .

فقد اصبحت عدو المجتمع الطبيعي المتمركز في قلب النظام الاجتماعي ، عدواً يتوجب على المجتمع « مواجهته متسلحا بالضمانات التي حصل عليها ، مواجهته وهو على اشد ما يمكن من الحيطة والحذر وعلى اتم الاستعداد للرد عند اول بوادر الهجوم » . فعلم اجتماع التقدم وعلم السياسة الماورائية يقومان على مبدأ السيادة الشعبية ، ذلك المجتمع الذي يقوم بحفاظه على حالة دائمة من الكراهية للحكومة « فاللاهوت هو سيادة رجال الدين والماورائيات هي سيادة المحامين » ، لنستمع الى المقرظين والسياسيين يدافعون عن وجهات نظرهم المتعارضة فنعرف كيف تنصر الانانية والفردية الفوضوية والفوضى السياسية والاجتماعية . وعلى العكس من ذلك يرفع تأثير الوضعية المحافظ من شأن الطاعة ويدعم الحكم « ذلك ان مفهوم التقدم لا يناقض نفسه. اذا نظرنا اليه منفصلا فهو يدور بلا نتيجة ويقضي على نفسه » . وهكذا نرى ان كوندورسيه اكبر منظري التقدم يظلم العصر الوسيط لكرهه علم اجتماع النظام فيناقض نظريته حول افتراض التقدم الانساني المستمر لادانته مرحلة طويلة بالتخلف والظلامية . بينما يبقى كونت متناسقا مع نفسه باجلاله العصر الوسيط الذي يراه متفوقا على العصور القديمة لانه يعقبها ذلك انه لا معنى لمفهوم التقدم اذا لم يعط محتوى وهذا لا يمكن الا ان يكون النظام . ويعتبر علم الاجتماع الوضعي وحده قادرا على التقريب بين العقول والقلوب كما في المرحلة

الماورائية ، ولكن باقامة هذا التقريب على الحقيقة العلميـة للخطأ اللاهوتي ، قادرا على التوفيق بين مفهومي النظـام والتقدم . يتمسـك كونت « في البحث حول الفلسفـة » الوضعية بالتقدم اي الديناميكا الاجتماعية المجملة في قانون الحالات الثلاث . وقد اخذ كونت الفكرة الاولى عن سـان سيمون الذي يقول بمرور المجتمعات بمرحلتين متميزتين متعاقبتين « المرحلة الاولى ونسميها الحالة العضوية التي تصنف فيها كافة وقائع النشاط الانساني وتقدر وتنظـم حسب نظرية عامة تحدد بوضوح هدف وغايـة النشاط الاجتماعي ، والمرحلة الثانيـة ونسميها بالمرحلة الانتقاديـة ويتحول المجتمـع فيها الى تجمـع من الافـراد المنعزلين المتصارعين بعد ان توقف كل تقارب بين الافكار وانعدام كل عمل جماعي وكل تنسيق » .

بكلمة اخرى نجد لدى كونت من جهة تعارضا بـين الحالـة الوضعية التي تتخلى عن البحث المستعصي عـن الاسباب لتكتفي باكتشاف القوانين وبين المرحلتين السابقتين اللتين تفتقران الى الفكر العلمي لانهما تتصوران امكانيـة اكتشاف ما سماه بيكون بالتخطيطية السرية الطبيعـة أو أسبابها العميقة . ونجد لديه من جهـة اخـرى ضرورة التقريب بين الحالة الوضعية والحالة اللاهوتية لكونهمـا عضويين بصورة اساسية بخلاف الحالة الماورائية الموصوفة « بالانتقاديـة » ..

كما كان سان سيمون يدعي ان كل مرحلة انتقادية تحضر لمرحلة عضوية اكبر وأوسع حتي نصل الى مرحلة عضوية تشمل الانسانية بكاملها كذلك يحدد اوغست كونت دور الفلسفة الوضعية بتوحيد كافة الرجال في وحدة روحية اوسع واعمق تتقدم بصورة لا متناهية في تفاصيلها ، وقد حدد بنيتها العامة بصورة نهائية في « البحث في الفلسفة الوضعية » بعد ان تلاحمت وتجانست كافة مفاهيمنا الاساسية ستقوم الفلسفة الوضعية بصورة نهائية ولا يبقى لها بعد ان عجزت عن تغيير صفاتها الا تطوير الى ما لا نهاية بالمكتسبات المتزايدة الناتجة بالضرورة عن الملاحظات او التأملات العميقة » وتعتبر فلسفة كونت كفلسفة ماركس فلسفة « الخلاصة »على عكس فلسفتي كيرك جيرد وبرودون فلسفتي توتر وتشدد على كل هذا هو المعنى التاريخي والاجتماعي لقانون الحالات الثلاث .

لا يمكن ان يبقى قانون الحالات الثلاث تاريخيا بسيطا لدى مفكر عقلاني مثل اوغست كونت . فاذا كانت الافكار توجه العالم فان تطور التاريخ يجد مصدره وتفسيره في نظرية المعرفة لذا لا بد من النظر في قانون الحالات الثلاث من ضمن هذا الاطار والقول بتعاقب معارفنا في مراحل ثلاث : اللاهوتية والماورائية والوضعية. والتأكيد بأنوسيلة تطور الذكاء تحصل بالطريحة وهي نظام والنقيضة وهي تقدم ، وخلاصتهما وهي مكملة للنظام والتقدم لا تجميع

لهما ... وتطرح قضية المعرفة . ـ المعرفة الاولى اذا رغبنا ـ بعض الصعوبة فلا نظرية دون تطبيق ولا تطبيق دون نظرية ، فالانسان يحتاج الى النظرية في مراقبته للاحداث ويحتاج الى الوقائع لبناء النظرية ولا يمكننا الخروج من هذه المعضلة الا بقطع عقدة المعرفة الفوردية أي بافتراض وجود نظام وجوداً لم نتحقق منه بعد فالحالة اللاهوتية هي بالنهاية نظرية الخيال او الاسطورة .

لا بد من تصور النظام قبل معرفته . هذههيبالضرورة خطوة الفكر الاولى « فالفكر الانساني المحصور بين حاجته الى الملاحظة في سبيل اقامة نظريات حقيقية وحاجته الملحة الى اقامة نظريات ايا كانت للانصراف الى الملاحظة المتواصلة وجد نفسه عند ولادته في دائرة مفرغة لم يكن ليجد السبيل الى الخروج منها لو لم يمهد له منفذا طبيعيا بالتطوير التلقائي المفاهيم اللاهوتية التي شكلت نقطة التقاء لجهوده وقدمت غذاء لنشاطه .. »

تعتبر كافة العلوم النشاط اللاهوتي نتيجة لانطلاقة الفكر التلقائية الاولى التي توصلت وبفضل قدرة الفكر الموحدة الى المنهجية الاولى والخلاصة الاولى التي تعتبر نقطة الانطلاق للتقدم اللاحق ومن هنا يأتي هذا القول الشهير لكونت « يفترض كل تقدم وجود نظام سابق له » ولا يمكن للنظام الاول او الحالة اللاهوتية الدوام طويلا لانه متناقض .. ففي كل نظام نجد عددا من الظواهر البسيطة

الجلية في دقتها حتى لتوكيد عدم تدخل اية ارادة تعسفية فيها : فنحن لم نعرف ربا للجاذبية . « وقد جهلنا النظام الشامل (نظام الكليات) طوال فترة تغلب التجار المتكررة رغم الاعتراضات التي امتدت بصورة متدرجة الى الامور المعقدة بعد ان تثبتت من الاحداث البسيطة » ..

وهذا وفي الوقت الذي تبرز فيه المنهجية الخيالية الاولى تدرك بعض الوقائع البسيطة بصورة واقعية وضعية وتصبح نقطة الانطلاق لكل تصور انساني . اضف ان هذا التوحيد الاول او النظرية المفترضة تتيح ملاحظة وقائع يتعارضون فيها ويناقضونها ، ثم يأتي التطبيق ليناقض الاسطورة : فهناك تناقض بين النظرية المفترضة والتطبيق المتراوح في واقعيته ووضعيته ... وتشكل هذه التناقضات الداخلية اساس التقدم .. فهذا الجزء الضئيل من الوضعية القائمة منذ البداية هو الذي يفتت ببطء التفسيرات اللاهوتية فالبناء التصوري يحمل في طياته الوضعية التي تقضي عليه من الداخل فالحالة الماورائية هي ذلك الهدم البطيء للحالة اللاهوتية ، والحالة الوضعية قادرة وحدها بسلبيتها على القضاء على اللاهوتية ، فقدرة الفكر الماورائي على النفي تأتيه من تأكيد اعمق الا وهو وضعية الفكر الانساني الاساسية . حتى أن هذه الفوضى تعمل دون علم منها في خدمة النظام المتقدم : يجب ان تسبق مرحلة الانتقاد الكبير مرحلة النظام النهائي .. فالحالة الوضعية هي التحقيق التام للوضعية القائمة بالضرورة في

الاختلاجات الانسانية الاولى . وتكمل العبارة الشهيرة الاولى التي ذكرناها « يفترض كل تقدم وجود نظام قائم « تكملها ثانية » التقدم هو تطوير النظام » فالحالة الوضعية تتوصل الى الانتصار لانها قائمة منذ البداية وهكذا يمكن القول للفرد والانسانية ما قاله باسكال « لم تكن لتبحث عني لو لم تجدني » .

نجد لدى كونت كما لدى سبينوزا وان اختلفت القرينة الفلسفية وضعية اساسية لدى الفكر الانساني : فالنفي الماورائي هو الوعي الاول والوجه الثاني لتأكيد أعمق .. وتوكيد فلسفة كونت كفلسفة سبينوزا بصورة جذرية ، ان هدف التقدم والمعرفة الوحيد هو التكملة : فهي تجمع بين النظريات والوقائع وتسير على خطين خطيرين : « الاسطورية التي تود التغلغل حتى الاسباب والتجريبية التي تكتفي بالوقائع . هذه هي الديناميكا الاجتماعية المعروضة في مؤلف « بحث في الفلسفة الوضعية » ..

ويبدو لنا لاول وهلة ان التقدم يسود كل شيء لكننا سرعان ما نرى انه يفترض بصورة اعمق النظام وانه تطوير له ، والحقيقة ان النظام لدى كونت ليس نظاما فقيرا بل هو نظام غني يرنو الى تفسير نفسه وتطويرها . وتخضع هذه الديناميكا النسبية العلم الى توازن القوى « السكون » الذي يحددها بصورة غريبة كما رأينا في « المنهجة السياسية الوضعية » : ... فكونت يعني ان بنية المجتمع لا تتحول بصورة اساسية وهو يقسو على الاشتراكية

لرغبتها في تغيير البنية الاجتماعية ، ذلك ان عناصر المجتمع ثلاثية : الدين العائلة الملكية وهو ثالوث لا يتبدل .. وتنجح الوضعية في تنظيم هذا الثالوث بصورة نهائية بعد ان فشلت كل من الحالة اللاهوتية والماورائية في ذلك . فيتخذ هـذا الثالوث الطابع الاجتماعي بصورة جلية فتصبح العائلـــة الخلية الاجتماعية ويصبح الدين « دين الانسانية » ويحافظ كونت على الملكية ويجهد في جعلها وظيفة اجتماعية « يجب ان نحافظ على الثروة في غايتها على صفة منشئها الاجتماعية مع محافظتها على حيازتها الشخصية » ويذهب كونت بعيدا في « مشركتـــه » حتى انه يعطي الدولة في نهايـــة مؤلفـه « منهجية السياسة الوضعية » حق التدخل بقوة لاخضـــاع الحياة الخاصة للحياة العامة وفق أمنية العصور القديمـــة وينتج عن ذلك خضوع الديناميكا لعلم توازن القوى وخضوع التقدم للنظام . ويبـــدو مـــن المدهش ان نتحقـــق من ان المعتقدات هي التي تتغير حسب كونت لا الوقائع السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ففي الواقع ينتهي علم الاجتماع الوضعي رغم فلسفتـــه التاريخيـــة الى تثبيت التسلســـل التقليدي : لا شك ان كونت اراد ورغب في ايجاد خلاصـــة « الديكتاتورية التقليدية والحرية الثورية » الا انه يعاـــن ان الديكتاتوريـــة هي المثـــال الواجب للحكـــم الفرنســـي والتقدمي . والطريقة التي يطرح بها القضية هي التي تفرض الحل « التوفيق النهائي بين الديكتاتورية والحرية وفـــق امنية هوبس المنهجية التي حققها فريدريك بعفوية » .

الفصل الخامس

علم الاجتماع الوضعي وعلم الاجتماع الشخصي

نجد لكلمة وضعي لدى كونت تفسيرا واسعا وتقنيا . بدأ كونت بالقول انه يستعمل كلمة وضعي وفقا للمعنى الذي حدده أسلافه ، لكن وحسب المفهوم المشترك تعني كلمة وضعي Positif كلمة واقعي وهي مضادة لكلمة Chimerique وهمي أو خيالي و Utile نافع مضادة لـ Oiseux عديم الفائدة وكلمة Certain أكيد المضادة لكلمة Douteux مريب وكلمة محدد Precis المضادة لكلمة مبهم Vague وكلمة عضوي Organique المضادة لكلمة سلبي Negatif ويأخذ كونت في « الحوار حول الفكر الوضعي » بهذه المعاني

الخمسة الشائعة الا انه يضيف اليها واحدة تشملها جميعها وهكذا اصبحت كلمة الوضعية Positif تعني النسبي le Refatif المعارض لكلمة المطلق Oboolu

اعلن كونت انه لم يحتفظ من مؤلفات شبابه الا بعبارة واحدة « كل شيء نسبي ، هذا هو المبدأ المطلق الوحيد » ويضيف كونت احيانا الى المعاني السابقة معنى سابعا قد يكون الاهم : الوضعي هو الاشراكي الاجتماعي المعارض للفردي .

غالبا ما كان كونت يردد ان صفة الفكر الوضعي الاساسية هي انه اشتراكي بصورة مباشرة . ويبدو لنا من الصعب ان نشبه الاشتراكية بالموضوعية الصرفة وعلى كل تأبى الوضعية اكثر من أي فلسفة اخرى ان تنزل وتدني الاعلى الى الاسفل ، فالاجتماعية الانسانية تملك ميزاتها الخاصة وذاتيتها . وموضوعية الاشتراكية لا تعني ابدا احالتها الى الطبيعة . الوضعية لا تعني لا المذهب المادي ولا المذهب الطبيعي اذ لا يمكن انقاص الظواهر الانسانية التي تملك ميزات خاصة. فهي لا شك تحمل سمة موضوعية تميزها عن الظواهر الطبيعية فلا تختلط بها . لكن أين تكمن الموضوعية في علم الاجتماع لدى كونت وما هي اشكال الموضوعية التي تتفق معها ؟ يمكن اعتبار الوضعية في مجموعها نوعا من الواقعية او التشيئة فكونت يريد ان يجعل من الذكاء مرآة للكون وقد ادعى البعض ــ وفي هذا

الاعتقاد بعض المبالغة ـ ان كونت لا يقدم اي حل للقضية التي يطرحها الفكر على نفسه ، وانه لم يدرك هذه القضية، وان فرضيته الاساسية هي تحويل الشخص الى موضوع بسبب تمسكه بالعلم الوضعي حتى ولو طغى هذا العلم على الفكر الانساني ، أفلا ينسب الى كونت القول المأثور حول الخضوع الى الموضوع « يقتضي المنطق الخضوع الى الموضوع الطبيعة كما يستدعي علم الاخلاق الخضوع الى الموضوع المجتمع ؟. » اذن تتناقض كلمة اجتماع بصورة اساسية مع كلمة ذاتية ويحمل كونت كلمتي ذات وذاتية معنى ضيقا وحقيرا ، فالاخطاء والذنوب تنتج عن سيطرة وتسلط الذات على الموضوع . ففي سيطرة الذات على الموضوع فخر وزهو ، وفي سيطرة الموضوع على الذات مذلة وخضوع وفي الاخيرة علاج للجنون المتقمص بالخيلاء . فكونت يحدد الغطرسة بأنها « افراط في الذاتية » الامر الذي يفسر لنا تمسك مؤسس الوضعية بايفاء اسلافه حقهم . فهذا التقدير يرتبط بجوهر وكنه وماهية مذهبه وهو دليل ايجابية ووضعية . ميزة الطبيعة الفلسفية الاساسية تكمن في قدرتها على الاجلال لذا يبدو من الممكن اقناع مفكر لاهوتي اعتاد الخضوع بالحقيقة الوضعية بينما يستحيل ذلك بالنسبة لمفكر ما ورائي لتغلب الانتقادية والذاتية لديه فالماورائية المشبعة بالخيلاء لا يمكن الا ان تؤدي الى الشك . الم يكتب كونت الشاب الى صديقه فالا Valat بمناسبة عودته الى الهدى « اعترف لك بعمق

سعادتي لعلمي انك بعودتك الى الحالة اللاهوتية لم تجمد فكرك وقلبك ، في المرحلة « التأليهية الماورائية » العاجزة التي تعيق كل تجديد وانبعاث جوهري .. يعجبني أن تكون كاثوليكيا علنا بلا تردد » . ويبني كونت فيما بعد كبير آماله على هنري ديكس هوتون Henri Dix Hutton فهذا الشاب وان لم ينتظم بعد يبدو انه قابل للتنظيم بينما لا يتوقع الكثير من سيليستين دو بلينيير Celestin de Blignières « فمعتقدات هذا التلميذ الوضعية المهزوزة لا يمكن ان تؤدي الا الى إثارة الابتذال النظري غير المروض خاصة وانه لا يبدي اية رغبة في الاجلال فهو من الافراد الذين يحتفظون رغم ادعائهم الوضعية « بالبناء الفردي للضمير العالمي » ..

وهكذا يعتبر اوغست كونت قبل الآن الذي تأثر به ان العاجز عن الاجلال هو عاجز عن التفكير الامر الذي يفسر الدور الكبير الذي يعطيه للعائلة ملقنة الفرد الفضائل الاجتماعية وخصوصا الاجلال .. فالعرف الانساني يحمل لنا الفكر العالمي الواجب علينا التعمق فيه ؛ فمن حق العظماء علينا قراءتهم وتأمل كتاباتهم والاقتداء بهم ... يفتقر الفرد غير المؤهل بصورة طبيعية الى اجلالهم واحترامهم الى الصفة الاساسية فهم الوضعية واعتناقها . ونستخرج من أقوال اوغست كونت هذه اصول علم التربية التي تأثر بها الآن كثير !.

ولا يمكن لنا ان نعتبر البتة تحول كونت الى التربية

مأخذا عليه افـلا تهدف الافكار العظيمـة الى التعليـم ؟ فافلاطون معلم الانسانية الاول ومهذب الفكر ، راعي الكلمات يدعوها ويجمعها ، هو مهذب الالفاظ والافكار ترك لنـا المثل التي تعلمنا التفكير وان انتقدناها : فالعلوم هي مهذبة الرجال على مر العصور ، هي فلسفة يتباين اتجاههـا ورؤيتها في الرياضيات (سبينوزا) او علم الفلك (كونت) معلم الفكر الانساني . كذلك روسو يريد نفسـه مهذبـا للانسان الجديد ونيتشه يرغب نفسـه نبيـا للانسانيـة الجديدة، وقد وضع في سبيل ذلك شوبينهاور Shopenhauer مؤلفه « شوبينهاور المربي » ومؤلف باشلار Bachelard المزدوج الحديث المتعلق ببحث العلوم والتحليل النفساني الادبي او العلمي يجد وحدته اذا رأينا وراعينا فيه علم تربية المنطق . أرادت الايجابية عمدا ان تحـول الى علم تربيـة يرمي الى تطوير فكرة النظام والقدرة على الاعجاب الموجهة بصورة اساسية على اجلاء العظماء من الاموات ، فقد قـال هيغل « الافكار تبدأ كالارادة بالطاعة » .

يتأثر الفرد ويتعلم ممن يجهلهم ويولد احترام كونت للعظمـاء والمخترعين اجـلالا لقديسي المذهب الكاثوليكـي ويشكـل جدلا طقسيا ـ فالهـدف الاساسي هـو وصول الحضارة بكاملها الى كل فرد كي تؤثر فيه . لذا يبدو من الضروري ان نخلق لدى الجميع عادات الطاعة والخضوع والاجلال والتقديس . تلك العادات التي تتيح لهم وتؤهلهم

لتقبل التراث ونقله . ان تصبح رجلا يوجب تلقي هـــذه الامانة ورفض هذا الخضوع وعدم الاخـذ بالتراث يؤدي بصاحبه الى البهيمية والحيوانية « قوام الحضارة تطـور الفكر الانساني وهذا التطور هو غاية الواقع الاجتماعي ، التحديد الحقيقي للواقع الاجتماعي . تهدف الوضعية الى ان تربي الفرد وتعده للمساهمـة في الحضارة الانسانية ، وتتميز الانسانية بالنتيجة بظاهرة التأثير في الزمان أكثر من المكان وهذا ما ندعوه بالتربيـة . فالانسان كائـن تاريخي لقابليته للتربية ؛ وقد توصل الآن الى برهان فلسفـة تربوية مشابهة من خلال اطرائه لمذهب فاسفي مخالف أكد وجوب البدء بالنقل قبل المحاكاة والاخذ بالمؤلفات العظيمة واعتبر ان التربية الاولى والاساسية تكمن في الاخذ من كبار الرجال ، من الماضي « لولا اجلاله للعظماء من الاموات لكان الفرد حيوانا ذا شكل انساني . فقدرة الانسانية تكمـن في هذه الجماعة الخالدة » . »

الا انه يتوجب علينا الا نستنتج ان الخضوع للموضوع يبلغ الوضعية الكاملة ، ذلك ان كونت يعتبر الفرد مجردا . كذلك لا يؤمن بعلم النفس علما مستقلا بل يراه علما يتوزع بين علم الاحياء وعلم الاجتماع فهو يرفض الموضوعية التي توجه الى الفرد الذات .. وقد جعل من الاستبطان انتقادا جذريا : فالعين تعجز عن رؤية نفسها الامر الذي يوجب على المعرفة التمييز الضروري بين الذات والموضوع أي انه لا يمكن تصور وجود معرفة الذات تلك المعرفة التي يكـون

فيها الفكر هو الموضوع ، المعرفة التي يتماثل ويتطابق فيها الفكر كذات والفكر كموضوع . بكلمة واحدة ينطوي هـذا الانتقاد على فكرة قصدية الضمير او السريرة المعروفـة اليوم ، فالمعرفة تتجه كالعين نحو الخارج . المعرفة ليست المعرفة الذاتية بل هي معرفة شيء ما .

الاستبطان مخيف ومتناقض تماما اذا عنينا به هوية الانا العارفة والنا المعروفة ـ وبكلمة اخرى نقـول انه لا وجود لفكرة الفكرة وكوجيتو قول ديكارت « انا أفكر اذن أنا موجود » الذي يحاول ان ينفرد « بالانا أفكر » التي ترافق كافة تصوراتنا مستحيل لان الكوجيتو لا تقوم بعيدا عـن التصـورات ، فلا فكـرة دون موضـوع ، وكـل فكـرة موضوعية ـ ولا يدعي كونت بعجزنا عن معرفة الفكر عندما يفكر ، بل يقول ان الفكر لا يفكر الا حين يتأمل موضوعـا فهو ينفي وجود المعرفة خارج الفكر المعرفة المنفصلـة عـن الموضوع . لذا أصر مرارا على التأكيد بأن الفكرة المنفصلة عن الموضوع (الاحلام واحلام اليقظة) ليس فكرا حقيقيـا بل جنون صرف . يمكن اذن قيام علم للفكر شرط ان يكون موضوعيا يشمل معرفـة الفكـرة وموضوعاتها ، وتدحض الموضوعية الطريقة التأملية الاستبطانية وتنكر فيها ادعاء الفرد الرجوع عـن التأملية والعودة الى كوجيتـو ديكارت « انا أفكر اذن أنا موجود » واتخاذ نفسه مصدرا للمعرفة . وهكذا يؤكد كونت ان معرفة الفكر تندرج في « الاعمال الفلكية والفيزيولوجية » فالفكر وان لم يكن بالضرورة طبيعة لا يمكن

دراسته خارجا عن شروط ممارسته الطبيعية .. ولا يعني هذا دحض الموضوعية الجذري لفلسفة الذات ، فالجزء الثاني من فلسفة اوغست كونت يتميز بسواد ما سماه « الجمعية الذاتية أو الشخصية » ، وافضليتها ناشئة ومشتقة بالضرورة عن الاهمية المعترف بها والمقرة لمفهوم المنفعة الذاتي ، فالموضوعية انسانية أكثر منها طبيعية .

يعتبر كونت ايجابيا كل ما هو نافع للانسان ، وقد ادى هذا المفهوم الضيق للموضوعية بكونت الى تحديد حدود الامكانيات الانسانية بصورة تعسفية فأبدى عداء صريحا لكل بحث مفصل كثير الاسهاب وحكم عليه مسبقا بالفوضوية و « العقمية » ، ورأى في الحب الميكروسكوبي الدقيق نتيجة فضول عابث وعقيم وتهجم على استعمال أدوات البحث الدقيقة وحساب الاحتمالات الصغيرة باختصار كل ما بدا مثمرا في العلم الحديث .

دافع كونت بتحديده المعرفة من ضمن اطار المنفعة الانسانية وهي غير معروفة ومحددة تماما ، دافع عن مفهوم ضيق ومحدود مفهوم يكمن فضله وان افرط بالموضوعية يكمن في اعادة رؤية الذات الى مفهوم المعرفة ..

اذا تعمقنا في دراسة فلسفة كونت نجد انها رنت منذ البداية الى ان تكون فلسفة الذات وقد اوضح هذه الفكرة افضل مفسر لفكر كونت في فرنسا هنري غوييه Henri Gouhier بقوله : تكمن فكرة هيغل الاولى في معرفة الانتقال

الدائب من الاحساس بالعالم الى الاحساس بالذات وبالعكس الانتقال من الاحساس بالذات الى الاحساس بالعالم . فاذا لم يتمكن المرء من امتلاك نفسه بصورة مباشرة عن طريق الاستبطان فانه يبلغ ذاته من خلال اعماله . وتعتبر فلسفة الفكر لدى كونت تأملا لنتاج النشاط الانساني وخصوصا نتاج المعرفة العلمية الممتاز . باختصار تعتبر الفلسفة الوضعية تأملا للسبل العلمية ، ويمكن تحديدها بأنها تاريخ للذكاء الانساني عبر العلوم ، وهي لا تفترض العملية المستحيلة لكل ما هو ذاتي وشخصي الى موضوعي : فتاريخ الفكر يحل مكان الاستبطان . وهكذا يعطي كونت معنى جديدا لمعرفة سقراط اعرف نفسك فهو يجدد نفسه ويفتش عن الفكر في تاريخ العلوم لانه يعتبر مستحيلا أمر دراسته وملاحظته مباشرة ، فهو ينقد معرفة الذات استبعاده الاحساس بالذات . لقد كان لهذا الموقف ابلغ الاثر فهو يفسر كيف اوصلت الوضعية الى « الامثلية » ببعث الطريقة التأملية التي دحضها كونت كما فعل برونشفيغ Brunchvig الذي أخذ عن كونت رغم تناقضه معه الفكرة القائلة بأن « التاريخ هو مختبر الفيلسوف » . لقد أدت الوضعية مرغمة الى اثراء وتعميق الطريقة التأملية التي رفضتها وأنكرتها . هنا تتضح فكرة « الجمعية الشخصية » التي بدت للوهلة الاولى متناقضة والفكر الوضعي . وتتضح بصورة افضل بدراسة دور الاخلاق والدين في فكرة أوغست كونت الاخيرة . ويكفي لفهم مراميها العامة الاخذ بالمعنى

الحرفي الضيق لقول كونت « الانسانية أغنى بالاموات منها بالاحياء » وتحديده الانسانية بأنها القدرة على استيعاب وتناقل ما حفظته الاجيال السابقة فالانسان هو مجموعة التقاليد والقدرة على التقدم . يعتبر كل منا ان كل المنطق وكل الاخلاق تكمن بالخضوع الى الانسانية . فالفكرة السائدة لدى كونت هي الخضوع للانسانية وهو يتمسك بهذه الفكرة ويبلورها كلما تقدم في العمر ليصل الى القول بوجوب الخضوع الى الطبيعة فلا بد من بلوغ المعرفة الوضعية في سبيل الانسانية ولصالحها . تتعاظم أهمية الانسانية بتزايد عدد الموتى ، فنحن نعيش منهم والموضوعية هي هؤلاء الاموات الذين يتكلمون اي الموتى الذين يعيشون فينا وبواسطتنا. للانسان تاريخ حافل بل بالاحرى هو تاريخ . هذا التاريخ هو الحضارة بعينها لان الحضارة هي التي تصنع الانسان هي الانسان . وكما يقول الان « كل واحد منا متدثر بالحضارة ولا يعود قادرا على التعرف على نفسه اذا تجرد وتعرى منها فهو ينحدر الى الحيوانية . فلسفة كونت هي علم للاجتماع — وهذا ما يعطيها طابعها الذاتي — وعلم الاجتماع هو فلسفة الفكر اذا راينا في الفكر ثقافة متناقضة مع الطبيعة والتلقائية وتقاليد انسانية دائبة التقدم ولم نعتبره ماهية او جوهرا فرديا . واجه كونت باسلوب جديد نظرية المعرفة حين حولها الى العلم عالم الاجتماع فقد أحل مكان الطريقة الماورائية الذاتية التي نعتقد خطأ بامكانيتها تحليل افكارنا وقدرتها على التقاط

نشاطنا الفكري ، أحل مكانها طريقة ذاتية وضعية » تحلل الفكـر الانساني في تطـوره حيث يدمـج السبب النظري والتطبيقي ليشكـلا سببا واحـدا يدرس في تطوره نحـو الوضعية .. مع الملاحظة الدائمة بان الموضوع الحقيقي ليس الفرد بل الانسانية . وتسود الموضوعية طوال فترة تشكل وتكون الفلسفة الوضعية وهي تنطلق من العالم وتتجه الـى الانسـان . وعندما يتأسس علـم الاجتماع يأخـذ الانسان محورا له ويتحدد مكانه ضمن رؤى ذاتية بصورة أساسية تقول بشمولية الانسانية .

وأخيرا نعـود الى تعبـير ليفـي برول **Levy Bruhl** الذي يرى ان فلسفة التاريخ لدى كونت : هي ديالكتيـك الانسانية الواقعي الذي يتحدد اتجاهه وكل معناه عندمـا يصبح علم الاجتماع علم الفكر الانساني الحقيقي وضعيا . تعتبر فلسفة التاريخ لدى كونت في وقت واحد كل عظمة وكل ضعف الوضعية وهو يفلت من كل علمية وكل تلقائية ويؤسس الانسانية الاجتماعية التي تجعل من الانسانيـة بكاملها لا من الفرد ، بمجموع احيائها وامواتها مقياس كافة الامـور .

الفصل السادس

الاخلاق والدين

يملك رجل ارغست كونت تاريخا فهو اولا حيوان ذو تاريخ ، الامر الذي يقضي بتبعية علم الاجتماع الى الفلسفة الوضعية الملقنة الوحيدة لقوانين الطبيعية الانسانية ودوامية وثباتية الجسم الانساني الضرورية . الانسان كائن طبيعي لا يمكنه الانفلات من الطبيعة . وما التقدم الا تطور المعطيات الاساسية لا تحسينها . يدرس علم الاحياء الاطارات « الطبيعية » ويجب علينا وان اتسمت الاعتبارات البيولوجية « بالتفوق الطبيعي » يجب علينا الحذر من اعطائها تفوقا مفرغا كأن نحاول دراسة الانسان ضمن اطار الطبيعة فقط « بتجريده من الخبرة التاريخية » . اذا كان علينا عدم معارضة الطبيعة و « الثقافة » فهذا لا يعني الخلط بينهما فكما قال م . دافي (**M. Davy**)« تمتد

جذور علم الاجتماع الى علمي الاحياء والطبيعة وتكتسب نوعيتها من الثقافة وتقتطفها من التاريخ » .

وهكذا يتميز علم الاجتماع بال « طريقة التاريخية » التي تتيح له دراسة كل ما هو فعلا انساني في الانسان أي بكل ما يميزه عن الحيوانات . ويختلف علم الاجتماع بوصفه علم الاجتماع « الثقافي » يختلف جذريا عن علم « الاحياء » ويقول كونت في الفصل الثامن والاربعين من « البحث في الفلسفة الوضعية » « ينتج المبدأ الوضعي عن هذا التفريق الفلسفي ، عن التأثير الضروري للاجيال الانسانية على الاجيال اللاحقة التي تنتهي بتراكمها بصورة مستمرة الى تشكيل التأملات المتطورة لدراسة التطور الاجتماعي بصورة مباشرة » ، وبكلمة أخرى نستطيع القول ان الحيوان هو الوراثة العضوية بينما الانسان هو تربية اخلاقية . وتأثير الاجيال على بعضها البعض هو تجربة واقعية . كما ان ذكاءنا عاجز عن « كشف المراحل الانسانية الفعالة لهذا التطور المعقد دون التغلب المباشر والضروري للتحليل التاريخي » والثقافة هي واقعة حضارية مما يعني انها ظاهرة تاريخية . ويمكن لعلم الاجتماع دراسة الثقافة بفضل التاريخ والطريقة المقارنة ..

ولعلم الاجتماع « العلم » هدف عملي مهمته بلوغ السياسة الوضعية : فقد اعلن كونت عام ١٨٣٠ في الفصل الاول من « البحث » عن اعادة التنظيم الاجتماعي كهدف

اساسي لفلسفته ، التنبؤ بالقدرة في سبيل العلاج الامر الممكن لان الظواهر الاجتماعية بفضل تكويناتها العليا قابلة للتطوير والتغيير » . ويقول كونت بصعوبة التعرف على الوقائع كلما تعقدت وتزداد القدرة على التأثير عليها كلما ازدادت المعرفة بها . ويعتبر علم الفلك اهون من علم الاجتماع واقل تعقيدا منه رغم ان هذا الاخير لا يتيح لنا تعديل مسار النجوم . الا انه يمكننا من استخراج بعض التطبيقات عن حياة المجتمعات « فعلم الاجتماع باتاحته اقامة سياسة ايجابية يسمح بانهاء الازمة التي بدأت مع الثورة الفرنسية » كما ان « هدف علم الاجتماع هو الحد من تمرد الفكر على القلب هذا التمرد العائد الى القرن الثامن عشر » . وهكذا نجد ان فكرة الوضعية الاساسية هي « ارتباط وجهات النظر العامة بالعواطف العامة » وبالعكس فتطوير شعور الواجب الايجابي يرافق الراي العام السائد حول التضامن الطبيعي .

يجوز اعتبار القلب افضل موفق بين الوضعية والاخلاقية وقد هنأ الان Alain كونت Conte لانه « لاحظ احتواء كلمة قلب على اروع ازدواجية ، فهو يعني الحب والشجاعة في نفس الوقت الذي يذكرنا فيه بالرابطة بين القدرة على التفكير وبنيان الجسم . فالاخلاق والدين ليسا بنيانا علويا متأخرا للعقيدة انهما تعبير عملي عن الروح الجماعية الناتجة عن منهجة العلوم » .. وتعود

هذه الفكرة الى سان سيمون الـذي قضى وهـو يكتب « النصرانية الجديدة » والذي رأى في « الدين ــ والفن ــ وسيلة تعيد الى القلب حقوقه وسيلة لاشبـاع الايثاريـة المرتبطة بطبيعتنا » ويطري سان سيمون ويشجع فكـرة « العودة الحبية الى الطاعة والامتثـال » ومنهـا اطاعـة الاقطاعية الصناعيـة القائمة على الكفاءة التقنية .. قال سان سيمون قبل الوضعية بالتنسيق بين التقنيـة ونوع مـن الصوفية الجذرية للحب . ويختلف كونت عنه باعتقـاده باستحالة استتباب سيادة القلب دون اعطـاء المرأة دورا فعالا . ومن هنا كانت « التعاليم الوضعية » المتوجهـة بالدرجة الاولى الى المرأة لبعث الانسانية وتجديدها . توجه كونت الى المرأة لانها أكثر ايثارية وأقدر على فهم الوضعية وقد لعبت كلوتيلد دو فو Clotilde de Vaux بالنسبـة للوضعية دورا مشابها للدور الذي قامت به السيدة العذراء بالنسبة للمسيحية ، وهكذا يصبح كل من العلم والاخـلاق قمة العقيدة .

لا بد من التذكر بأن الاخـلاق والدين المقصوديـن وضعيان أي انهما تابعان للطبيعة لا يتجاوزانها .. واذا كان التقدم تطويرا لا اتقانا فمن واجب الاخلاق والدين المتصفان بالوضعية تطوير الميـول الراسخـة في طبيعتنا ، الميـول القائمة منذ القدم لدى الفرد ، الميول المدعوة بالايثارية . لا يمكن وصف اخلاق ودين كونت بالمثالية فهما محفوران

في قلب الانسان حتى لينحصر دور الوضعية في تطوير مبدأ طبيعي وأزلي قائم . أضف الى ذلك وجوب كون موضوع تلك الاخلاق وذلك الدين موضوعيا ، الامر الذي يستتبع ضرورة التوفيق بين علم الاحياء والتاريخ أي بين الطبيعة والثقافة وتصبح الطريقة الذاتانية بفضل هذه الجمعية القائمة بين الطبيعة والثقافة هي الانسانية ، تصبح الطريقة الذاتانية المكمل الضروري للطريقة الموضوعبة اجتماعية بدلا من البقاء على حالة اللاهوتية . بهذا القول يتضح تحليلنا السابق . فكونت يقول انه لا يمكن فهم أي علم بعيدا عن تاريخه أي بنسبته لمجموع الانسانية ، ويتيح علم الاجتماع تحويل الفلسفة من الموضوعانية الى الذاتانية فقبل تشييد علم الاجتماع الوضعي لم تكن الاخلاق والدين تخلوان من الخطر لم يكن بوسعهما الا ان يكونا شخصانيين ماورائيين اما الآن فيمكنهما ان يتحولا الى الشخصانية الوضعية . وقد كتب غاستون ريشارد Gaston Richard في مقال حول « الوضعية القضائية » : « منذ نشر برنامج علم الاجتماع حكم بالكفاية على مضمون هذا العلم لانه استنباط للحالات الثلاث وتحول على الفور الى نظرية تتعلق بموضوع المعرفة ويتحول المجتمع بسبب علاقاته مع الوسط المزدوج الاحياء والكونيات وارتباطه بالمستقبل الجماعي للانسانية يتحول الى وسيط بين الذات والموضوع ، بين الفكر والكون . وتدخل كافة القوانين العلمية في علم الاجتماع بصفة معلومات تمهيدية على الاقل . علم الاجتماع هو علم الفكر الوحيد انه

اذن العامل الاساسي في تكوين الفلسفة الاولى . » وقد أتاح هذا التحول في وجهات النظر ، اتاح لكونت وضع في قمة مراتب الموسوعة علما سابعا هو علم الاخلاق او علم الانسان الفرد علما يعلم المعرفة والحب وخدمة الكائن العظيم أي الانسانية التي تحول وتنقل اليها « رئاسة الموسوعة » بعد ان استأثر بها علم الاجتماع طويلا .

لقد أتاحت الحياة الاجتماعية للانسان التطوير غير العادي للوظائف الفكرية والاخلاقية وما هذا التطور الا التحديد الفعلي للانسانية . يعتقد كونت على خلاف دوركهايم Durkheim يعتقد ان الوضعية الحقيقية تكمن في المجتمع الشامل ،الانسانية ، لا في المجتمعات الخاصة المنفردة بصفات معينة « فالفكر الوضعي اجتماعي بصورة مباشرة على قدر الامكان ودون بذل أي جهد بفضل واقعيته المميزة » .

لا وجود للانسان الكامل بنظر كونت فهو يقول بوجود الانسانية وحدها لان تطورنا مرتبط بالمجتمع كيفما تناولناه، واذا كنا لا زلنا نعتبر المجتمع تجريدا لذكائنا فسبب ذلك النظام الفلسفي القديم ، فهذه الميزات تعود الى فكرة الفردية كما يؤكد جازما « الحوار حول الفكر الوضعي » يتوجب علينا احترام الانسانية لانها اكثر تعدادا وافضل من مجموعة افراد او مجموعة مجتمعات ، فهي تعيش وتحيا كاملة في كل جيل ونحن مدينون لها بكل ما يميزنا عن

الحيوانات ، فالانسانية تركة تأتي من الطبيعة وعرف يأخذ من التاريخ . كل دماغ مؤتمن بالوراثة على كافة مكتسبات جنسنا والتقاليد تنقل الينا اللغة وهذه التربية الفورية التي تدرجنا في النظام الانساني ، فالفرد هو وريث حياة النوع ونتاج التربية الاجتماعية حتى انه يمكن القول وفق الرأي التقليدي ان « الانسانية تتكون من الاموات اكثر منها من الاحياء » ويحدد كونت الانسانية بأنها « مجموعة المخلوقات الانسانية الماضية المستقبلية والحاضرة » الاموات الاكثر تعدادا وهم مستمرون بفضل الخلود الذاتي ، اما بسبب احياء ذكراهم او الاستمرارية نتيجة اعمالهم بفضل التقدم .. يوضح كونت في « التعاليم الوضعية » ان « الاجتماعية الحقيقية تكمن في الاستمرارية المتوالية اكثر منها في التضامن الحالي . الاموات يحكمون الاحياء هذا هو القانون الاساسي في النظام الانساني ولا بد لفهمه بوضوح من التمييز لدى كل خادم للانسانية بين وجودين متعاقبين ، الوجود الاولي وهو مؤقت الا انه مباشر وهو يشكل الحياة المعروفة والوجود الثاني غير مباشر الا انه دائم يبدأ بعد المنية . الوجود الاول جسدي يمكن وصفه بالموضعية وذلك بالتناقض مع الوجود الثاني الذي يمكن وصفه بالذاتانية لانه يؤمن الاستمرارية في قلوب وافكار الآخرين . وهذا الاخير هو الخلود العظيم غير المادي الذي تؤمنه الوضعية لروحنا بحفظها ، هذا التعبير الغالي لوصف مجموعة الوظائف الفكرية والاخلاقية دون اي ذكر للوحدة «

للهوية المقابلة . وانطلاقا من هذا المبدأ تتكون الانسانية الحقيقية من مجموعتين ضروريتين تتبدل نسبتهما دون توقف باتجاه ترجيح الاموات على الاحياء في كل عملية حقيقية . اذا كان التأثير والنتيجة يرتبطان بصورة أساسية بالعنصر الطبيعي فالدافع والقاعدة ينبعان بصورة اساسية من العنصر الذاتاني ، فبعد ان زودنا اسلافنا ننقل نحن الى خلفنا مجموعة الملكية الانسانية نوسعها بنسبة ما استحصلنا عليه . وتجد هذه المجانية الطبيعية مكافأتها او تعويضها في الاندماج الذاتي الذي يتيح ديمومة خدماتنا بتحويلها ونقلها . غالبا ما يعود الان Alain الى هذه الفكرة فيقول « ليس المجتمع الانساني من هم هنا وهناك في نفس الوقت بل هو من هم ومن كانوا » وقد أكد كونت Conte انه « لا يمكن اعتبارها مجتمعات ، مجموعات النحل والنمل والقندس لانها لا تحفظ أفضل منتجات كل جيل من ابنية واشعار وامثال » . وعندما بحث ايسبيناس Espinas في المجتمعات الحيوانية عن القوانين البسيطة للحياة الاجتماعية ادار ظهره للوضعية : فهذه التعاونيات المثيرة لا تشكل قط مجتمعات ، وقد أخذ الان Alain عن هذا القول فلسفة تربوية تقول بانعدام وجود مجتمعات انسانية حديثة باعتبار ان الرابطة الانسانية تقوم في الزمان اكثر منها في المكان . الانسانية هي اجلال الاموات وخصوصا العظماء منهم وهي تقوم على الاعجاب والاحترام والاحتفاء

بالذكرى . وهكذا نجد الى أي مدى مفهوم الاجلال الوضعية نفسها فهو يحدد مفهوم الانسانية من خلال الوضعية . « يعتبر اوغست كونت من القلائل الذين فهموا مغزى احياء الذكرى التي يمارسها الجميع . والملاحظة الاولى التي نتبينها هي ان الحيوانات لا تجل الاموات ومن هنا تجرا الفيلسوف واستنتج بأن الحيوانات لا تملك مجتمعات فمن خصائص النوع الانساني تشييد النصب التذكارية » . « فكرة كونت عن الحيوانات عظيمة فاذا كان قفير النحل يبني خلية فهذا لا يعني قدرتها على بناء المجتمعات . فبناء المجتمعات يستوجب اجلال الخلية القديمة وحكم الاموات للاحياء ، وهكذا ولدت الآلهة في العائلات لا في الطبيعة ، والابوة هي بلا شك المفهوم الاقرب الى الالوهية . ويعتبر الان Alain ككونت ان الدين متعلق بالعقيدة فهو اساسها وغايتها ومنبعها ونهايتها .

ومن هنا نستنتج كل الاخلاقية الوضعية التي تتضمن بصورة أساسية اقامة « هيمنة الاجتماعية على الشخصية » لفهم هذه العبارة لا بد من ذكر نظرية كونت حول الشخصية، فراسة الدماغ هذه التي ناقضها مع ماورائية علماءالنفس والمثاليين فخطأ المثاليين يكمن في اعتبارهم واخذهم بالفكر كوحدة متميزة تستقل بوجودها عن الاحاسيس والنشاط . وفراسة الدماغ المأخوذة عن غال Gall الذي حقق دراسة مقارنة بين الدماغ لدى الانسان والحيوان فصحح

اخطـــاء علماء النفس . وقد عرض علم فراســـة الدمـــاغ للاهمية الفائقة للحياة العاطفية ولطغيان القلب على العقل . نفكر لنحب اذن نحن نعيش حياة عاطفية مزدوجـــة ذات قطبين « الاجتماعية » و « الشخصية » . وبفضل غال ، حل مكان الصراع الوهمي والصوري بين الطبيعة والاناقة التناقض الواقعي الفعلي بين الجزء الخلفي من الدماغ حيث تتركز الغرائز الشخصيـــة والمنطقة الامامية حيث تتركـــز بصورة منفصلة ومتميزة الدوافع الودية والقدرات الفكرية. وهكذا تعني الشخصية لدى كونت مجموعة الميول التـــي تعلق الفرد ببنيانه وهي مرادفة للانانية . وعلى العكس من ذلك تعني الاجتماعية مجموعـــة الميـــول التي تربط الفرد بالحياة الاجتماعية للنوع وهي مرادفة للايثارية ، وتنتـــج مأساة الحياة الانسانية عن كون الغرائز الشخصية اكثـــر طاقة واقل عفة من الغرائز الايثارية واكثر فخرا واقـــل طاقة . والقضية الاساسية هي القدرة على تأمين هيمنـــة الغرائـــز الاضعـــف علـــى الغرائـــز الاقـــوى والاعنف . ولا يتحقـــق هـــذا الامـــر الا اذا أخذنـــا مبـــدأ العمـــل لا مـــن نفسنـــا بل مـــن المجتمـــع لان المجتمـــع ضروري للافراد يمارس تأثيره على الغرائز الودية ويضعف الاخـــرى التي تبطل بعضها البعض بتجاذبها . ويعود النقص الجذري للاهوت والماورائية ، من وجهة النظر الاخلاقية ، لكونهـــا قد اتخذت نقطة ارتكاز لها في « الانا » وتهتم الاخلاقيـــة اللاهوتيـــة بالدرجـــة الاولـــى بالخلاص الفـــردي وتـــؤدي

الاخلاقيات الماورائية الى بلوغ عادات الحسابات والتدقيق والمصالح . اما الاخلاقية الوضعية فتعتبر الانسان مجردا وتعتبر الانسانية وحدها واقعية واجتماعية بصورة مباشرة فهي اخلاقية النحن. نجد هذا التعبير الذيغالبا ما استعمله كونت لدى المستحدثين فقد كتب يميز ويناقض بينالاخلاقية الماورائية والاخلاقية الوضعية ، تعبر العبارات العادية العائدة الى (الاخلاقية الماورائية) تعبر ببساطة عن فكرها الاساسي وتسود لدى معتنقيها فكرة الانا دائما . وتغلف بقية الموجودات حتى الانسانية منها يغلفها بصورة مبهمة ، مفهوم سلبي واحد ويشكل مجموعها الغامض الأنا، ولا يمكن لاخلاقية النحن ان تجد لها فيها مكانا مباشرا وظاهرا ، وتتلخص هذه الافكار بصورة واضحة في « التعاليم الوضعية » وهو المؤلف المميز ان لم يكن الاعظم لكونت ، تنقسم هذه الحياة العاطفية التي تسود وتنسق الوجود بكامله تنقسم اولا الى شخصية واجتماعية ، وفي الواقع تحيي الشخصية الكائنات السفلى حتى الدرجة الحيوانية التي يبدأ فيها التمييز التام بين الاجناس والثانية وهي الاجتماعية تتواجد لدى اغلب الحيوانات المتقدمة كما لدى الانسان وان بدت أقل تطورا . لا تحمل هذه الازدواجية العاطفية مساواة حقيقية بين هذين العنصرين العامين الذي يقضي بالضرورة تكوين الوحدة الشاملة التي لا يمكن لها ان تقوم بصورة مختلفة .

تتجه الشحصية ، دون ان تقضي على الاجتماعية او

تبطلها الى السيطرة عليها حتى لدى الجنس البشري عندما يفرف الكائن من نفسه مبادىء سلوكه .. وهذا التطور ضروري حتى تبلغ الحياة الحيوانية هدفها الفردي وهو تابع دائما للوجود النباتي ذات الحاجات المستمرة القهارة التي تفرض وحدها اتجاها محددا للوظائف العليا . وفي الواقع تستمر هذه المتطلبات الدنيا في سيادة نوعنا البشري ولكن وفق طريقة غير مباشرة تتجه نحو النظام المعاكس حيث يحيا كل شخص في سبيل الآخرين . فاذا كان الحفاظ الاساسي لا يثير اي حاجة شخصية فان وجودنا الجماعي يفتقر الى ادارة محددة ، يفتقر الى صفات محددة ككل حياة فردية .

ومن هنا تنتج المشكلة الانسانية الكبرى : تبعية الشخصية الاجتماعية وباعادة كل شيء الى الانسانية وذلك على قدر الامكان ، وهكذا يتوجب على الانسان ، وهو قادر ، ان يصبح أكثر ايثارية وان يعتمد على المجتمع ويرتكز عليه . ولا يعني هذا القول ان كونت يتصور كالمنفعيين امكانية التطور من المرحلة الانانية ـ الايثارية حتى بلوغ المرحلة الايثارية النهائية مرورا بمرحلة وسيطة هي مرحلة الانانية الايثارية فهو لا يعترف بوجود أنانية أولية بل يقول بقوة وشدة الانانية في المرحلة الاولى باعتبار ان الغرائز المتعلقة بالانا وتلك المتعلقة بالنحن موجودة لدى كل شخص ومتوفرة لديه .. فالتطور يبقى دائما في نطاق الطبيعة وهو لا يعني ابدا الخلق من العدم ، فالانسانية

هي طبيعة فينا وكما ان تطور النظام الخارجي هـو مصدر كل معرفة وضعية كذلك الخضوع للنظام الاجتماعي هـو اساس كل النظم الاخلاقية « يجب ان تبقى المثالية تابعة الحقيقة خوفا من الوقوع في العجز والضلال » .

يكفي ان نذكر غموض وفوضوية تأملاتنا، عندما نغمض اعيننا طويلا ، للتيقن من تبعيتنا الطبيعية للعالم الخارجي ؛ ونحن تابعون للمجتمع كتبعيتنا للطبيعـة ، فالمجنـون هو ذلك الذي يعزل نفسه عن المجتمع ويبتعد عنه كذلك هو ذلك الذي يتجرد من العالم .. تكون الحياة الداخلية اذا اطلق عنانها وتركت على غيهـا ، تكـون صورية خياليـة فوضوية لا اخلاقية « يكفي ان نذكر التأثير التعيس للمجانين على الاطباء لنقدر كم يهزنا الاعتقاد العنيف رغم معرفتنـا المسبقة والتامة بخطئه والغلط الكامن فيه . كذلك يندر ان يثق أكثر المجددين تطرفا في اكتشافاته تماما قبل ان ينال بعض التشجيع فهو لا يمكنه الاستغناء عن هذا التأييد ان لم يستند على الوحدة الانسانية بكاملها . باختصار يمكـن القول ان النظام الفردي تابع للنظـام الاجتماعي بالنسبـة للتفاصيل كما بالنسبة للمجموع » .

ويعتبر أوغست كونت ان الحلم هو الحياة الداخليـة في حالتها الصرفة الخالصة وقد وجد في الاحلام ، قبـل فرويد ، تجسيدا لرغباتنا وتحقيقا لها . ويقدم تحليـل الاحلام مساعدة جلة للاخلاق فهو يبين لنا ميولنا الغالبـة حين تكون متحررة من كل قيد «أليس مثيرا ان تكون «النا»

الموضوع الاساسي لكافة احلامنا قبل ان نصبح تابعين للانسانية تماما » . وتظهر دراسة الاحلام بجلاء مستوى الانسان الاخلاقي ، وبين تماما انه لا يمكن تعديلها الا بالتأثير على الغرائز والرغبات أي بتأمين انتصار الايثارية ، وبتحويل « النحن » الى موضوع رئيسي للاحلام . على كل يكمن شرط الاخلاق الاولي في المعرفة الحقيقية التي تعودنا الخضوع للخارج « يثير الثبات الاساسي للنظام الشامل بصورة طبيعية الحب بضغط الانانية والامر بالوحدة » ويمكن لذلك الذي اعتاد استئصال الانانية ــ اذا امكننا استعمال هذا التعبير ــ الفكرية من المعرفة الذاتانية يمكن له بسهولة ان يسيطر على انانيته على الصعيد الاخلاقي ويعيش في سبيل الآخرين . فالتلاحم الذهني والانسجام الاخلاقي متكاملان : « ففي الوقت الذي يستتب فيه الانسجام الاخلاقي باخضاع الانانية الايثارية يرتكز التلاحم الاخلاقي على تطور النظام الخارجي » . ولا تقتصر اخلاقية « النحن » هذه على الاخلاق فقط بل تنتهي الى الديانة ، ففي مؤلف « النظام الوضعي » ورد بحث يحمل العنوان التالي « بحث في علم الاجتماع مؤسس دين الانسانية » باعتباره الوسيلة الوحيدة للقضاء الجذري على الكاثوليكية وفقا لقول كونت الشهير « لا نقضي الا على ما نستبدله » . من هنا تطرح قضية وحدة النظام ، فهنالك عدد كبير من تلامذة كونت قد تخلوا عنه وتحلقوا حول ليتريه Littré وستيوارت ميل Stuart Mill فقارنوا بين فلسفته الاولى

او فلسفة الذكاء وفلسفته الثانية فلسفة القلب الناتجة عن الصدمة الناشئة عن حبه لكلوتيلد دو فو وعن اضطراباته الفكرية وبينوا التناقض بينهما . وقد برر ليتريه Littré طوال حياته حقه في الانشقاق عن اوغست كونت وسلخه من نفسه أي بان يظهر ان كونت عندما اراد الانتقال من المبادىء الموضوعة في « نظام الفلسفة الوضعية » الى الممارسة الفعلية الوارد بحثها في « نظام السياسة الوضعية » لم يحسن الامساك بالخيط الذي يوصله الى مآربه . ومن المتفق عليه ان رسالة وحدة فكر كونت لا تثير الشك ولا تفتح اي مجال للظن بها ، وقد أكدها غوييه بصورة واضحة واكيدة . والنقطة الاولى الاكيدة هي ان فكرة انشاء سلطة روحية وكهنوت يهدف الى تجسيدها والابقاء عليها تعود الى كونت فالتأملات حول السلطة الروحية أعلنت منذ بداية عام ١٨٢٦ ضرورة تأسيس كهنوت جديد .. ذلك ان كونت يعتبر ان مرحلة ما قبل التاريخ لم تع تماما التمييز الهام بين السلطة الاخلاقية الصرفة المتجهة الى تنظيم الافكار والميول والسلطة السياسية الصرفة السائدة في الاعمال وآثارها ، لقد خدمت الكاثوليكية الانسانية بتمييزها الواضح بين هاتين السلطتين ، فقد انقذت الحضارة ، ذلك انه لا حضارة دون قيام طبقة خاصة ، طبقة من رجال الدين طبقة معفية من الواجبات العسكرية والصناعية وقادرة بفضل هيمنتها الذاتية على منح المجتمع الانساني بصورة تدريجية « كثافة وقوة ثابتة مستمرة وتنظيما دقيقا اذن

لا بد من سلطة روحية تفرض بالحوار لا بالقوة سلطة ترتبط التربية بها وتتعلق وهي اهم بنظر كونت من التعليم .. ولا يكف منشىء الوضعية كونت عن تذكير الصفوة والعلماء والفنانين بمهمتهم مهمة التثقيف الشعبي . ولا بد للجميع من ان ينالوا نصيبهم من تراث الانسانية الفكري فهو أثمن واغلى من كافة الاموال »، ويقول كونت « الكاثوليكية هي التي قدمت الى الانسانية في العصر الوسيط مؤسسة التربية الشاملة الاولى التي اعطت المسيحيين رغم عدم كفايتها ورغم التفاوت في اوضاعهم موضوعا متجانسا .

من الغريب تصور تعلم اقل شمولا من اجل حضارة اكثر تقدما لذا نجد ان كافة العقائد الثورية المتعلقة بالمساواة بالتعليم ، منذ انحلال المؤسسة الكاثوليكية نوعا من الحدس الغامض تجاه المستقبل الاجتماعي الحقيقي بالاضافة الى العقبات اللازمة عادة للطبيعة المبهمة والمطلقة للمفاهيم الماورائية ، ونذكر قول (الان) أن المدرسةالحقيقية ولدت التعليم الديني عندما كانت مهمة رجل الدين تعليم الجميع اصعب وأجل ما يعرف . وفكرة السلطة التي تفرض نفسها بفضل هيمنتها الروحية فقط هي فكرة دينية بالاصل وتتضمن الوضعية الاولية بالاضافة الى فكرة السلطة الروحية والطبقة الكهنوتية تتضمن وتنص على مشاعر دينية ترافقها بالضرورة .. لقد اشرنا – وسنردد ذلك تكرارا – الى ضرورة مواقف الخشوع والخضوع والتقدير والعبادة للوضعية . ويكفينا القول ان كونت كان

يغمره شعور بالورع ولا يمكن وصف هذا الامر بالانحراف الديني فالدين هو نهاية الوضعية ..

يجب ان نؤكد مع هنري غوييه Henri Gouhier انـه قبل ١٨٤٥ لم يكن بامكان احد ، حتى كونت ، التنبؤ بهذه الديانة ، هذا الخليط من تبني الكاثوليكية واعتمادها وتغير البدية . تأثر هذا الدين سلفا بلقاء كونت مع كلوتيلد دو فو Clotilde de Vaux ومن الطبيعي ان يفاجأ ستيوارت ميل Stuart Mill وليتريه بالامر فقد كان اوغست كونت اول المندهشين له وقد اعترف بذلك في احدى رسائله الى كلوتيلد دو فو Clotilde de Vaux « بدات الوضعيــة الدينية فعلا في لقائنا الاول يوم الجمعة في ١٦ ايار من العام ١٨٤٥ عندما اعلن قلبي فجأة امام عائلتك المندهشة هــذه العبارة : ليس بوسعنا أن نفكر دائما ولكن بامكاننا ان نحب دائما . وبعد مرور أقل مــن ثماني سنــوات علــى مؤلفي الاساسي الذي بدت فيه الوضعية موجهة بصورة أساسية الى المفكرين العلميين جاء الحوار الحاسم ، ودون اي سابق انذار ، هذا الحوار الذي يرتكز بصورة مباشرة على رجحان القلب المستمر بصورة تناسب النساء ، ويعود فضل هــذا التقدم اليك » .

نهاية الوضعية هي الدين ولكن لاختلف هذا الديـن لولا كلوتيلد دو فو Clotilde de Vaux فبعد ان رفضت

ان تمنح نفسهـا له ، وبعد ان ماتت بعد مضي عام علـى اعترافه لها بحبه . كشفت كلوتيلـد لاوغست كونت عـن الحب الصرف وهذا الحب هو الذي أثمر بعد تطوير آثاره المنطقية الدين الوضعي وقدمه .

كتب غوبيه Gouhier يقول : جهل اوغست كونت التركيز اللاهوتي في الباتر Pater كما جهل الصوفيـة المسيحية فناقض بصورة ارادية بين صلاته التي لا تطلب مقابلا والايمان القديم الذي يلج دائما بالسؤال . بينما كان يعيش تجربة مشابهة لتجربـة الروح الفاسـدة مع الله . وتدعي الديانة الجديدة احلال الانسانية في كل روح كمـا تحتل كلوتيلد دو فو Clotilde de Vanx قلب مولهها . كما تنقل حركة الكائن الذي يفقد نفسه ليعود ويجدها في صلب واقعها واقع الحقيقة الصرفة .الواقع الذي تكمن فيه الديانة وتتحرك وتعيش وتحيا . ويتطلب مثل هذا الحـب الصلوات والتضحيات التي تحقق الاتحاد مع الكائن الاعلي، وتفرض الاحتفالات التمهيدية التي تتوجه الى احاسيس هذا الكائن ويحتاج الى اجلال يحافظ باحترامه لافضل خدمة على الميل إلى الطهارة والقداسة ويوجب قيام كنيسة تعبر عن التقرب القائم بين الاحياء والاموات . وتنبىء الكتيبات والبحث بديانة أخلاقيـة مبنيـة على الايثاريـة ، وتبشر بسلطة روحية جديدة يؤسسها اساتذة الفلسفة والاخلاق وتقـول باحتفالات شبيهـة بالاعياد المدنيـة التي ينظمهـا

الفنانون . الا ان الدين اعمق من الاخلاقية والكهنوت أهم من التعليم والاجلال اقوى من أي تعبير جمالي : واذا كان من الصعب تحديد رجل الدين فهذا لا يمنع القول بأنه غير مرادف للعاطفة وانه يعني تجربة لا تتجزأ من الاخلاقية .. وما يميز الايثارية عن المحبة والترفع عن الواجب والواجب عن الورع قد يكون انتصار الحب على نفسه هذا الانتصار الذي يحوله الى نوع من العبادة : تتكون النوعية الدينية من هذا التقشف او الزهر وغزو الروح التي وهبت ذاتها كي يتمكن الكائن الكامل أن يرغب ويعيش فيها . وتكشف تجربة عام ١٨٤٥ التي لا مثيل لها لكونت ما لم يكن باستطاعة علم الاجتماع اكتشافه ابدا : الاقتراب المادي المحسوس من كل ما هو ديني في الدين ، الهبة التامة للذات التي تنقل الى قلب بلا رب شفافية الحب الصافي .. لابطل كونت لولا هذه التجربة الكاتدرائيات وحولها الى غرض آخر ككافة الآخذين بمبدأ اجلال العقل كمحبي الله كصديقه القديم سان سيمون ولكان هناك ديانة وضعية ولم يكن هنالك وضعية دينية .. اذن الديانة لدى كونت هي نتاج فلسفته وتجربته في الحب الصافي ، تجربة تدخل في تطور الفكرة وتندمج فيها مما استوجب اتسامها بميزات النظام الاساسية ،كأن يكون موضوعها وضعيا مما اقتضى استبدال الله بالانسانية « لقد هاجم الموحدون والبروتستانت الدين باسم الله ونحن علينا على العكس ابعاد الله نهائيا باسم الدين » وبعد استبعاد الله تبقى الأنا الانسانية التي تلعب نفس الدور. ويقول كونت

مشفقا على سان بول « نحيا في الانسانية ونعيش بها ونتحرك من خلالها فهي مركز عواطفنا » هذه الانسانية كالله القديم تلحق بها افراد كافة الاجيال بعد ان تلفظ المجرمين لتحافظ بالنتيجة على المجموعة المستمرة للكائنات المتقاربة المتحدة الاتجاه . وهنالك الملعونون كنيرون وروبسبيير وبونابارت وكل هؤلاء الذين هشموا التجانس الانساني والذين عاشوا كطفيليين وقد وصفهم سان سيمون بالزنبور . واذا كان الجميع يولدون ابناء للانسانية الا انهم لا يتحولون كلهم الى خدم لها فيبقون في الحالة الطفيلية وهي غير مقبولة الا في مرحلة التربية ، وهنالك ايضا الناجون . ومن ضمن المنتمين الى الانسانية يبرز القديسون الذين يسميهم كونت الشفعاء هؤلاء الذين يمكننا بل يتوجب علينا التضرع اليهم . وللكاثوليكية بفضل نظرية التجسيد فضل ابعادنا عن الله وعن الديانات الموحدة الصرفة . وقد حضرت الكاثوليكية للوضعية باجلالها للقديسين وللعذراء فقد اعادت احترام القديسين مذهب تعدد الالهة واعاد اجلال العذراء البدية . ويريد كونت تجاوز التوحيد المجرد للوصول الى حقيقة تعدد الالهة الملموسة وصدق البدية فلا بد من ادماج البدية بالوضعية لانها لاقت دائما مؤيديها . وتفرض ديانة الانسانية نوعا من العودة الى الحالة الانسانية الاولى وتجاوز كافة المراحل الوسيطة . والبدية هي تجسيم مفرط ضروري بالنسبة للنقاط الثلاث الجمالية والاخلاقية والدينية وان كان مفجعا من ناحية المعرفة .

هكذا يعيد كونت الاعتبار الى مفهوم الاحساس الوهمي الذي نال منه مبدأ الحالات الثلاث وقد يعترف مع غوسدورف Gusdorf بوجوب بقاء مبادىء الاحساس الوهمي كحواس وابنية كمتطلبات مكونة للواقع الانساني . ويعتبر كونت ان العذراء تدخل نوعا من الطراوة البدية الى الكاثوليكية . وتكتسب السيدة العذراء خلال الحملات الصليبية وبمناسبة الانطلاق المزدوج للتأثير النسائي والعادات الفروسية غلبة متزايدة ، تفوقا أكده سان برنارد وحاول منهجته ، « ومنذ ذلك الحين يباشر باصلاح العلة الناتجة عن كلية القدرة (السلطان المطلق) للمحرك الاعلى حتى « تطفأ » تماما عبادة الله . لا شيء اقدر من الامثلة المقدسة للجنس النسائي » لتحضير « الادراك النهائي » خاصة وانها « رائدته الغامضة » ، وقد بشرت هذه الوساطة الانسانية واعلنت الحالة الطبيعية للعبادة « بصورة افضل من اي وسيط الهي . والواقعة الشعرية الوحيدة التي وهبتها الكاثوليكية هي « خلقها اللذيذ » للعذراء التي تهيىء النفوس للعبادة الوضعية » فقد كان لصورة العذراء الام دور انتقالي فهي التي اعدتنا لتقبل شعار « الهتنا » الانسانية . واذا بدا كونت قاسيا في حكمه على الله في مقابلته ومناقضته بين « خدام الله » وخدام الانسانية فانه مستعد لتقديره تاريخيا شرط الانتهاء منه ومن ذكره نهائيا . وينتهي « التعليم الوضعي » « بهذا الحكم الذي لا رجوع

عنه » لقد حلت الانسانية بصورة نهائية مكان الله دون ان تنسى خدماته المؤقتة .

وما يهمنا فعلا هو الانتقال الى الحالة الوضعية القائمة على أكبر تطوير ممكن للاجتماعيـــة . كذلك يمتدح كونـــت الذين يصفهم بالمتدينين بصورة طبيعية وفق المعيار الوضعي لانهم الاكثر اجتماعية . وهو يشعر بالنفور والاشمئزاز من الذين يهابون النجاح الفردي رغم ان قدراتهم تتيح لهــــم النبوغ وهو ينتقد بصورة خاصة الطبقات المتوسطة التــي تعتبر خطأ رمز قوة فرنسا رغم انها نقطة ضعفها وعلتهــا العميقة ويحقد عليها لانانيتها وفرديتها المتفاقمة وفكرهــا المناوىء للنظامية ، ويتهمها بمحاولة نقل « ميزات » الحذر والتوفير الى الشعب . ويرى كونت وجــوب زوال هــذه الطبقة زوالها بالتحاق قسم صغير منها بالبورجوازية الكبيرة وانضمام القسم المتبقي الى البروليتاريا ، يزيد من فوضانا الحالية طموح البورجوازيــة الحاقــدة واحتقارهــا الاعمى للوجود الشعبي وحينما تتجدد عاداتها تحت تأثير الاوضاع والمعتقدات مجتمعة يندمج قادتها في طبقة الشيوخ وتذوب جماهيرها في البروليتاريا عندها فقط تقضي على الطبقات المتوسطة . ويجد كونت ان الشعب يتميز بعمومية أفكاره وكرم عواطفه المباشرة والتلقائية . تملك البروليتاريا وحدها روح الجماعة لذا يمكننا الحسم بأن احترامها للمعرفـــة « الامتثال البروليتاري » وأفضل ما يمكن ان يفعله الشعب في الحاضر هو الالتحاق « بالقطاعات الشيوعية » والالتحام

بها حتى يسرع باسقاط النظام الماورائي ويوصل الى الوضعية . « لا يمكن لاي من الطبقات الحالية الباقية ان تكون نظرا للتأثير المنور لوضعها الطبيعي ، كالشعب استعدادا وقدرة على التوجه نحو البعث الاجتماعي .. وتعتبر المنافسة الشعبية وحدها قادرة، ازاء أنانية الطبقات العليا ، قادرة على اثارة رؤى رفيعة ومشاعر كريمة » . فمزية البروليتاريا او بالاحرى ديانتها هي الاجتماعية لذا يقتضي علينا اجراء بعض التعديلات على الكباريه لا القضاء على الميل اليها لدى البروليتاريا .. فهي ظاهرة اجتماعية ودليل عافية ..

وهكذا نجد ان تطور الفكر الوضعي أي الاجتماعي هو الذي يؤدي بكونت الى اخلاقية قائمة على المحبة ويوصله الى ديانة الانسانية ، وهذان العاملان مرتبطان ببعضهما البعض فالاخلاقية هي علم الانسان الفرد وفن ايجاد سعادته في الحياة في سبيل غيره ، والدين الذي يطور مشاعر الخضوع والامتثال والاجلال والتعبد هو تتويج للوضعية وحارس فكرها . وتخلق الوضعية الدينية بانشائها الكهنوت تلك الطبقة الاجتماعية التي تعجز أية حضارة عن الاستمرار والبقاء بدونها . سيتحول رجال الوضعية بحفاظهم على رأي أي بسيادة روح المجموعة في المجتمع بكامله كما تسود لدى كل فرد ، يتحولون الى ملهمين للتعليم الحقيقي ذلك التعليم الذي يوليه كونت اهمية كبيرة . ولا بد أن تنتصر الطريحة التي اصبحت ممكنة اليوم بفضل

الاعداد الموسوعي على التحليل الهدام الذي يقول بتخصيص الوظائــف وتقسيـم الافكـــار ولا نخطـىء بتحليـــل الوضعية اذا اعتبرناها سيادة الطريحة . ويقي الدين سيادة الطريحة ويصون الاعداد الموسوعي باقسامــه الثلاثــة : العديدة ، وهي المبدأ الذي يؤدي بنا الى الاستنتاج بــان وحدتنا الحقيقية تقتضي علينا العيش في سبيل الآخرين ، التعبد وهو مخصص لتطوير المشاعر التي يتطلبها مثــل هذا الاستعداد ، وأخيراً النظام الذي يغلب في الحياة العملية الخاصة والعامة مبدأ التجانس الشامــل الوحيـد . اذن يتعلق النظام بالحياة العملية بكاملها فينظم الاعمال بالحاق السلطة الزمنية بالسلطة الروحية اي بالحــاق السياســة بالاخلاق والدين . ويؤدي الفكر الوضعي الى هيمنة السلطة الدينية دائما الامر الذي يفرض وفق رؤى كونت تفـوق الامور العامة على الامور الخاصة . ولا شك ان الام هـــي المسؤولة الاولى عن التربية ولكن شرط ان يتم ذلك بوحي من الكهنوت الوضعي الذي يتزايد تأثيره بتقـدم الطفل في السن فلقد سبق وأكدنا ان الوضعية الصرفة هي تربيــة بالدرجة الاولى .

الفصل السابع

العائلة ، الوطن ، العمل

لم يكتف كونت بتطوير فكرة علم الاجتماع لكونه يشكل درجة متقدمة من الفلسفة في نفس الوقت الذي يكملها فيه ، كما ان فلسفة التاريخ لديه لا تكتفي بتأسيس علم الاجتماع ، لقد ذهب الفيلسوف بعيدا واستخلص من فلسفته علما تربويا واستنتج منها بداية دراسات مادية محددة وضعية وفقا للمعنى المعروف للتعبير. فعلم الاجتماع لدى كونت لا يهمل في توجهه المباشر نحو الانسانية بقية المجتمعات الوسيطة وقد اختار منها اثنين فضلهما وحللهما ومنحهما دورا متشابها هما العائلة والوطن ، وقد عرف كيف يوجد في العمل الرابطة في العلاقات بين النظرية والممارسة . وتأتي أهمية العائلة الاولية لكونها تشكل عنصر المجتمع الحقيقي ويعتقد كونت ان اي نظام عضوي لا يتشكل

الا من عناصر مشابهة له واقل منه فالاجزاء متجانسة مع الكل وان كان هذا الكل يتجاوزها ويفيض عنها . ولا بد للمجتمع وهو نظام عضوي من ان يتشكل من عناصر متجانسة ، عناصر اجتماعية لا فردية ـ يشكل تقسيم الانسانية الى أفراد عملية فوضوية لا اخلاقية تعمل على تفكيك الوجود الاجتماعي بدلا من تفسيره بحجة انه لا يمكن تفسيرها الا عند توقفها . ولا بد هنا من اجراء مقابلة مع حياة كونت . . لقد أكد كونت في بداية عمله على الفكرة القائلة بأن العناصر التي تدخل في الظواهر الحياتية هي نفسها العناصر الفيزيائية او الكيميائية ، لكنه عاد فيما بعد وتبنى مفهوما مشابها لرأي كلود برنار Claude Bernard مبينا تعذر تبسيط الحياة الى الظواهر التي تحكمها لانها تملك نوعيتها الخاصة . كذلك تحليل المجتمع الى عناصر فردية سيء تماما كالسوء الناتج عن التحليل الكيميائي للجسم الانساني الى ذرات في علم الاحياء ، ففي علم الاحياء كما في علم الاجتماع ، ننطلق من الجزء الى الكل والكل في الحالة الاولى هو الجسم الانساني والكل في الحالة الثانية هو الانسانية . العائلة هي الوحيدة المبنية بصورة طبيعية على الحب لذا فهي تكون المجتمع الاقوى والاضيق، فالعائلة هي وفق العبارة التقليدية الخلية الاجتماعية الحقيقية وهذه الخلية هي قبل كل شيء المقدمة (الضابطة) لافكارنا الصبيانية والمراهقة فالانسان هائم وذكاؤه شارد . وتطوير الفكر هو بالدرجة الاولى تطوير للانتباه ، ان تكون

منتبها هو ان تنسى نفسك وان تضمن سيطرة الموضوع ، ان تتوقف عن التأرجح وان تثبت فكريا وحسيا . والمؤسسة العائلية هي التي تجعل الفرد قادرا على الانتباه أي انها تلعب دور التثبيت والترسيخ وهي تنقل الطفل من مرحلة التلاحم الجسدي الى مرحلة التلاحم الفكري بتكوين وتطوير انتباهه ، وبفضلها يشعر الطفل السلبي بوجوده . تتسم حالتنا الطبيعية عند الولادة بالهيمنة الذاتانية ، فالفرد مجنون بصورة طبيعية والعائلة هي الدواء الناجع لهذا الجنون الطبيعي وهي « تتجه الى تقويم وحتى الى الوقاية من الهدر التلقائي لذكائنا باعداده للامتثال الاخلاقي الذاتانية امام الموضوعانية » وتنظم الافكار البالغة الافكار الصبيانية الهائمة بصورة طبيعية والعائلة هي التي تقوم بهذا التنظيم. نجد ان فكرة التنظيم بالشيء الاساسية ــ سواء كان هذا الشيء الطبيعة او المجتمع ــ تطبيقا رئيسيا هنا .. ولا يقتصر دور العائلة على الاطفال فكافة افراد المؤسسة العائلة يستفيدون منها . الحياة العائلية هي المصدر الوضعي للاخلاقية والاجتماعية فبفضل العائلة يتخلص الانسان من الانسانية ويرتفع الى الايثارية .. فالحياة العائلية هي الرابطة الطبيعية بين الشخصانية والاجتماعية . « تقتضي الفعالية الاخلاقية للحياة العائلية تشكيل المرحلة الانتقالية الوحيدة التي يمكن لها تحريرنا من الشخصانية الصرفة ورفعنا بصورة تدريجية الى الاجتماعية الصرفة ويعني كون العائلة المصدر المادي للاخلاقية انها مصدر كافة العلاقات

الاجتماعية فبوصفنا ابناء نتعلم كيف نجل رؤساءنا وبوصفنا اخوة نتعلم كيف نختار إترابنا وتعلمنا الابوة بصورة مباشرة كيف نحب ابناءنا .

تكمن الاخلاقية بصورة اساسية وفق كونت في الود أي في تطوير الاجتماعية والحب وتتبنى الوضعية كمبدأ مقدس لها العبارة القائلة ان « الحب مبدأها والنظام قاعدتها والتقدم هدفها » . ويفضح الحب نفسه في ثلاثة ميول ودية خاصة بتكويننا الذهني : التعلق والاجلال والطيبة. ولا تتفتح هذه الميول الا في نطاق العائلة حيث نتعلق بالزوج ونجل الام ونعطف على الابنة . فالاخلاقية لا تتشكل فجأة. ويعتقد كونت ان مصدر الاخلاقية هو حب الطفل لامه وحب الرجل لزوجته وحب الاب لابنته . وهو يؤكد دائما على دور المرأة وتأثيرها « لا يمكن ان نكتب او نتكلم عن مجموع الوضعية دون ان نكون قد عانينا من التأثير الانثوي » والاجلال العائلي الذي يحيط به الزواج موضوعه الاساسي هو الامرأة فالام والزوجة والابنة هن شقيقات الرجل وملاكه الحارس وربة المنزل . ويحيط كونت الوجود بكامله بما يسميه «التأثيرات الانثوية المقدسة » ويعلن ان نظريته الدينية حول الاجلال العام والخاص للمرأة هو « مقدمة ضرورية ومشجعة لتعبير الانسانية » وعند النضوج يقول : « لقد عانينا تأثير المرأة بكامله فهي الام التي راعتنا والاخت التي لازمتنا وهي تعود وتؤ ر علينا كزوجة وابنة حتى تقوي قيمتنا الاخلاقية » ،
ويعود للنساء أمر التعليم الوضعي فنحن نجد الامتثال فعلا

عندهن الامتثال الفكري الواجب من اجـل بعث منهجي :
فالنساء وان كن أميات جاهلات فهن على الاقل لم تضللهن
سياسة ماورائية لا تثير اهتمامهن لقد حافظ حرمان النساء
من حق الاقتراع عليهن وهيأهن للمرحلة الوضعية . كذلك
تمنع الحساسية المفرطة لدى « الجنس العاطفي » تفـوق
الذكاء الانتقادي التحليلي الذي جعـل من رجـال الغرب
مرضى عقليين « فمنذ نهايـة القرون الوسطى والتدخـل
النسائي وحده يحد بسرية تامة من الفساد الاخلاقي المقابل
للخلل العقلي الذي يتجـه اليـه الغرب وخصوصا قلبـه
الفرنسي . وقد بلـغ هذا الهذيان المزمن أوجه فالحكـم
الاجتماعية لم تعد تطغى في أي من المناقشات اللاذعـة .
فالعواطف وحدها تحمي وتدعم النظام الغربي » ولا يقبل
كونت في هذه الظروف الا الزواج الاحادي وهو يرفض الطلاق
بصورة مطلقة للاسباب الشائنة . ويبدو كونت أكثر تعصبا
من الكاثوليكية حين يطلب من المرأة على الاقل ما يسميـه
« بالترمل الابدي » أو « التأيم الابدي » وكما يعني موضوع
العائلة المرأة بالدرجة الاولى يعني موضوع الوطن البروليتاريا
ولانستغربن هذه المقارنة فغالبا ما يقارن كونت بين النساء
والبروليتاريا ويجمع بينهما فهو يعول عليهم بصورة أساسية
لدعم الوضعية اذ يقول في مقدمة « التعاليم الوضعية » :
« عقيدتي لا يمكن لها الا أن تتخـذ الاحاسيس الانسانيـة
يدعمها منطق البروليتاريا سندا قطعيا لها . » فالبروليتاريا
والنساء يتمتعون بافضليات متعددة ، واذا كان العمـال

جاهلين كالنساء تماما فهذا قد حماهم من المعرفة المغلوطة التي تملأ غرورا وتمنع عن سماع الحقيقة والاخذ بها . لقد بقيت البروليتاريا غريبة عن الجدل السياسي الصرف رغم انها حافظت على حبها للمجتمع « وتعلقها العفوي كالنساء بهدف الثورة الكبرى الاجتماعي » ..

هؤلاء العمال الذين يواجهون المادة بصورة مباشرة وينتصرون على المصاعب الحقيقية . المعتادون على العمل . واقعيون بطبيعتهم وفكرهم وضعيون بصورة تلقائية ، فهم غرباء عن السياسة والبلاغة واذا انغمسوا فيها تحت ضغط الافساد البورجوازي فانما ينغمسون فيها بسطحية . ويكمن التهديد الحقيقي للبروليتاريا في اندفاعها الاعمى وراء الفكر الثوري والماورائي واعتناقها مبدأ قوة العدد والوقوع في الفوضى والعنف الجماعي ..

لقد افسدت الممارسة التعسفية للاقتراع الشامل في الفترة الممتدة من العام ١٨٤٨ الى العام ١٨٥٢ المنطق الشعبي مما احوجها الى الخضوع الى النفوذ النسائي « تتطهر الثورة البروليتاريا تلقائيا من الاجراءات الهدامة التي عطلتها حتى الآن بتفاعلها مع الثورة النسائية » . وهكذا تتوجه « التعاليم الوضعية » الى المراة في الدرجة الاولى تتوجه اليها قبل البروليتاريا .. وتطبق التحاليل الموضوعة حول العائلة بتمامها تقريبا كما هي على الوطن فالوطن كالعائلة وسيط فالقلب والفكر يعجزان عن الارتقاء

بالعائلة الى مستوى الانسانية دون وساطة الوطن . وهنا يتعارض مفهوم كونت مع مفهوم برغشون الذي يرفض امكانية الارتفاع المتدرج من المجتمعات المغلقة الى المجتمعات المنفتحة على الانسانية .. فالارتفاع يتطلب بنظره ارتدادا كاملا بينما يقول كونت بوجود ديالكتيكية في المرور من الانانية الى الايثارية من الذاتانية الى الاجتماعية .. فالعائلة هي التي تكافح الانانية بصورة مباشرة انها الوسيط الاول بين الانا والانسانية والوطن يهيىء للانسانية. وتحضر الانانية الوطنية للحب الشامل وتعتبر الاوطان القائمة اكبر من ان تقوم بدور الوسيط بين العائلة والانسانية اذ ليس لها تأثير كاف على الافراد فدورها ما زال يقتصر كالعائلة ، على مهمة التثبيت والترسيخ مهمة الارتباط بمعناها الكامل لا تتولد المشاعر الوسيطة عن التجمعات الضيقة لذا لا بد من العودة الى نظام المدن الكبيرة ولا بد لضمان نجاح هذه المدن من التخلص من مفهوم الوطن العقيم لابهامه وغموضه . جمهوريات المستقبل يجب أن تكون اصغر من الادعاءات الثورية فالانحلال التدريجي لنظام الاستعمار منذ الاستقلال الاميركي هو بداية التجزئة الحتمية للسيادات الواسعة التي ما فتئت تظهر منذ ضعف الرابطة الكاثوليكية . ولن تتعدى في النهاية مساحة كل من الدول الغربية الحدود الحاضرة لتوسكانا وبلجيكا وهولندا ، وقريبا صقلية وسردينيا . ويشكل التعداد السكاني المتراوح بين مليون وثلاثة ملايين الموزع بنسبة ستين نسمة في الكيلومتر المربع ، الامتداد

المناسب للدول الحرة فعلا .. تلك الدول التي تتجمع اجزاؤها حبا منها بالتضامن دون ممارسة العنف .. وسيغذي السلام الغربي الطويل بقضائه على المخاوف الجدية من الغزو الخارجي وبقضائه على ائتلاف التخلف سيغذي الشعور بضرورة الحل السلمي للتجمعات الاصطناعية المزيفة التي فقدت مبرر وجودها وستجد الجمهورية الفرنسية نفسها مجزأة قبل مجيء القرن التاسع عشر الى سبع عشرة جمهورية مستقلة تضم كل منها خمسا من المقاطعات القائمة اليوم . وسيؤدي انفصال ايرلندا الى قطع العلاقات الاصطناعية التي تجمع اليوم بين اسكتلندة وبلاد الغال وانكلترا وستشكل البرتغال وايسلندا اذا لم تتم فيهما التقسيمات الجارية في بقية الدول الاوروبية الواسعة جمهوريات اوروبية كبيرة ففي الاوطان الصغيرة يجري تطبيق التأييد الطبيعي للنظام العام .. عندئذ يتحول الشعور الوطني الى وسيط فعلي بين العاطفة العائلية والحب الشامل .

واذا اساءت الاوطان الحالية القيام بدور التثبيت والترسخ بالنسبة للمواطنين فهي تعجز تماما عن تطبيقه مع العمال فالبروليتاريا لا وطن لهم فهم من البدو باعتبار انهم لم ينتموا ولم يستقروا فهم لا منازل لهم .. فالاكواخ القذرة والمسكن البائس يمنع تثبيت الفكر والجسد ، دون مأوى لا ارتباط ولا نظام دون ارتباط .. ولا بد هنا من المقارنة بين عبارتين العبارة الاولى وهي غير معروفة وردت

في « التعليم الوضعي » والعبارة الثانية مشهورة جاءت في « نظام السياسة الوضعية » والعبارتان تفسر واحدتهما الاخرى ويقول « التعليم » اما بالنسبة الى المسكن ففالبية البروليتاريا مخيمة في المجتمع الغربي لم تستقر بعد ،وتحمل العبارة الثانية نفس معاني العبارة الاولى فهي تتكلم عن « الاثاث » و « المسكن » لذا ينادي كونت بضرورة وجود حكومة تبيع المساكن للبروليتاريا فبهذه الطريقة وحدها يمكن تثبيت براءتنا فهي « المكمل البسيط النهائي للمعيشة الحضرية » وهذه الفقرات توضح بعضها البعض وهي ذات معنى عميق يختلف قليلا عما يسند اليها ويشاع . فالمعيشة الحضرية تتعارض لدى كونت مع حياةالبدو وحياة التشرد. وهو يرفض القيم البدوية الضرورية للبشرية التي يتوجب على الحضارات اكتسابها بطريقة او باخرى وهو لا يقر الا بالبداوة الفطرية ، بهذيان الفكر وتشرد الجسد ويوجب وضع حد لها . .. ويكمن دور الوطن والمجتمع والعائلات في متابعة وظيفتها ودورها في التثبيت والترسيخ فتوطين الرجال يتيح لهم التطور ويجعلهم « انسانيين » ..

فالبروليتاريا التي لا مسكن لها ولا وطن لها ومن الواجب اعطاؤها منزلا لتوظيفها وفق معاني الكلمة المختلفة في الامة . فالوضعية تعطي العمال بضمانها سعادتهم وكرامتهم اكثر من الشيوعية.تعطيهم وطنا وتتيحلهم التطور العقلي والاخلاقي الكامل ..

قضايا العائلة والوطن فلسفية ومادية معا لدى كونت .. فكما هنالك اتفاق تلقائي بين الوضعية والنساء كذلك هناك انسجام مسبق بين الفلسفة والبروليتاريا . طالب كونت باتحاد البروليتاريا والفلاسفة فهو يعتقد بضرورة قيام مثل هذا الاتحاد لانتصار الوضعية ، فالعقيدة الاكثر توحيدا تعوز عادة اذا افتقدت احدى هاتين المجموعتين المقدرة والفاعلية وتعوز دون الاخرى التماسك الضروري لتخطي العقبات الدائمة والمستمرة التي تعارض بها طبيعتنا الشخصية والاجتماعية الرجحان العملي للقواعد الاساسية. لا يحلم كونت بنوع من الديكتاتورية ديكتاتورية البروليتاريا فهو يريدها خاضعة لرؤسائها الروحيين والمدنيين على السواء فهو ان انتقد تجاوزات الرأسمالية الا انه برر مبادئها « تحول بأس الرأسمالية فبعد ان كان في البداية وسيلة طبيعية للانعتاق ثم الاستقلال اصبح اليوم عظيما في المعاملات اليومية ومهما بدا محقا التفوق الظاهر بسبب الشمولية والمسؤولية الفوقيتين حسب نظرية التدريجية الصحيحة » ، « تبقى الملكية وهي اجتماعية في اصلها كما في غايتها تبقى الملكية خاصة في حيازتها يتوجب على مالكها استغلالها افضل استغلال .. ويتطلب حسن الاستغلال حرية كاملة في الايصاء : فبدلا من انتقال الاموال الى الاقارب عن طريق الارث تمنح هذه الاموال الى الاقدر اذ يجب ان تستبدل التركة التيوقراطية (التربيبية) المنبثقة عن النظام الطبقي المغلق ان تستبدل بالتركة الاجتماع ـ قراطية ، أي

حق الشريف في حرية اختيار وريثه» . ويتهم كونتمحبذي سان سيمون بهدم العائلة والملكية بقضائهم على حرية الوصية . ولا ينكر كونت صراع الطبقات حين يحذر من اثارتها فهو يرى هذا الصراع ضروريا في النظام الماورائي فعن هذا الصراع ينتج تطلع البروليتاريا نحو المنظم الاعلى وهو السلطة الروحية . وهذه هي وسيلة كونت الثانية في تعميق الاتفاق العميق المترابط بين البروليتاريا والفلاسفة ويقول كونت « البروليتاري هو فيلسوف تلقائي كما ان الفيلسوف هو بروليتاري منهجي » وهذا القول وان بدا مختلف المعنى الا انه يذكرنا بقول كارل ماركس المعاصر « الفلسفة هي راس الانعتاق والتحرر الانساني والبروليتاريا قلبها ولا تتحقق الفلسفة الا بازالة البروليتاريا والبروليتاريا لا تزول قبل تحقيق الفلسفة » الا ان الوضعية لا تطالب بالابطال بل بالتنظيم والتقويم .

وقد ادت هذه التأملات بكونت الى تطوير فلسفة او على الاقل اقامة علم اجتماع للعمل وهذه الفكرة كانت مشتركة في حينه بين هيغل وبرودون وماركس وكثيرين غيرهم ، وقد توصل اليها كونت من وجهات نظر متعددة ولاسباب عميقة وداخلية للنظام . لقد سبق وذكرنا ان فكرة هيغل الاساسية كانت معرفة سر الانتقال الدائب من معرفة العالم الى معرفة الذات وبالعكس الانتقال من معرفة الذات الى معرفة العالم ، هذه الفكرة نجدها لدى كونت ايضا

« اذا لم يمتلك الانسان نفسه بصورة مباشرة بالاستبطان فانه يبلغ ذاته من خلال نتاجه » ومهمة الانسان الاساسية هي العمل . باختصار فلسفة العمل في الوضعية تابعة وثانوية فليس لها الاهمية العائدة لوحي والهام العقيدة ولكن هذا لا يمنعها من ان تتميز وتشكل تحولا بالنسبة لما يسمى فلسفة التأمل الصرف ويتوجب علينا الآن اكمال تحديد كونت للحضارة الذي ورد في بداية الفصل الخامس بما يلي :

« تكمن الحضارة في تطوير الفكر الانساني من جهة وفي تطوير أثر الانسان على الطبيعة ، وهو نهايتها من جهة اخرى » . العمل اي أثر الانسان على الطبيعة هو الميزة الاساسية لمفهوم الحضارة ولكنه ليس كما لدى ماركس وانغلز اصل استفاقة الضمير وتيقظه ، فعلى العكس من ذلك العمل متفرع ومشتق لانه ملازم لتطور الفكر الانساني . ويحافظ كونت على تعقليته : فكل قدرة ناتجة عن معرفة . لقد كفت فلسفة كونت ، بمنحها هذه الاهمية للعمل عن ان تكون فلسفة المعرفة التأملية الصرفة لتصبح فلسفة التقنية والعمل . تطبق النظرية بالممارسة ولكن الممارسة هي التي تأمر وتسير . ومن هنا تحاول الوضعية ان تقف في وسط التفاعل بين الانسان والطبيعة . فالوضعية تمنح الفكر بعض المبادرة وتعطيه نشاطا فعليا دون ان تكف عن اعتباره مرآة للعالم : تنتشر التعابير الاصطلاحية عند الاسراف في الموضوعية ، عندما يصبح دماغنا سلبيا ، والجنون هو

افراط في الذاتانية ومغالاة في النشاط بين التعابير الاصطلاحية والجنون تشق الوضعية طريقا سهلا طريقا نشيطا وخاصا أي العمل .

وقد وجهت هذه الاهتمامات انتباه كونت الى الاضطرابات والثورات الاجتماعية التي شهدها عصره وأتاحت له بناء تحليلات اجتماعية من الدرجة الاولى .. ويعلن الفصل الثاني من « بحث في الفلسفة الوضعية » يعلن عن قيام طبقة اجتماعية جديدة طبقة وسيطة بين « العلماء » و « مديري الاعمال » وقد دعا هذه الطبقة طبقة المهندسين وغايتها الخاصة تنظيم العلاقات بين النظرية والتطبيق حتى تصبح موضوع وقلب عقيدة صرفة يمكن ان تفسح المجال لبعض « التأملات الفلسفية ذات المنفعة الكبيرة والاهمية الحقيقية » وهكذا تسير التحولات الفكرية والتبدلات الاجتماعية جنبا الى جنب : اندماج النظري مع التطبيق العملي هو الذي يولد طبقة المهندسين الجديدة ، التي تهتم بالتجسيد العملي لهذه العلاقة ، ميزة العصور الحديثة الربط في العلاقة بين المعرفة والتقنية . وملاحظات كونت حول هذه الطبقة الجديدة عميقة فهي جديدة في نوعيتها .

لقد جمع الحكماء القدماء بين النظريات والقدرة على تطبيقها ، واذا بقي تاليس Thalès رمز ونموذج الرجل الذي جمع بين الفلسفة والحكمة والرياضيات الا ان الاغريق لم يعرفوا الانتقال من الرياضيات الى الفيزياء واذا

عرفت العصور القديمة الكلاسيكية ـ حيث يفضل كونت الرومانيين المنفعيين الايجابيين على الاغريق المثاليين بنظره ـ بعض الرياضيين فبصورة استثنائية ولغايات عسكرية .. وقد اضعف هذا العلم المفهوم التأملي للمعرفة وازدراء التطبيق .. فقد حافظ التطبيق دائما ومنذ البداية على ميزة أساسية الا وهي الوضعية .. فالانسان ما كان ليبلغ الحقيقة ابدا لو لم تنل الضرورات العملية منذ البداية من الجمعية اللاهوتية . وتتيح الوضعية اليوم انطلاق التطبيق المرتبط بتطوير النظرية والمتعلق بها ، الوضعية هي بطريقة ما نظرية الرياضيين كما ان الرياضيين هم التطبيق العملي للوضعية لذا فمن الطبيعي ان يتطورا في نفس الوقت لوجود تطابق ضروري بينهما .

لقد أخذ كونت هذه الفكرة عن سان سيمون فاشتراكية سان سيمون صناعية ـ فهو يفتش عن الخلاص في الصناعة لا في السياسة وهو يحيط كلمة الصناعة بهالة مقدسة . فالصناعية بنظره مسالمة ومهادنة واعطاء الاولوية للعمل تؤدي الى السلام اذ ليس بوسع الرجال الا العمل مشتركين .. ويقول سان سيمون ان التحولات الصناعية تفسر حركة التاريخ . فهنالك مجتمعان : المجتمع الاقطاعي وهو عسكري وعدواني بالضرورة والمجتمع الصناعي الذي يشيد سيادة العمل ويوطد السلام . وقد اقتصر دورالثورة الفرنسية على القضاء على بقايا الاقطاع فهي لم تبن : وهكذا يبقى بناء المجتمع الصناعي « بتمثل النشاط المادي

في الماضي في التأثير المزدوج للحرب والصناعة . اما في المستقبل فسيتمثل بالصناعة وحدها لانه سيصار الى استبدال استغلال الانسان للانسان ليحل مكانها أثر الانسان المتجانس على الطبيعة » .

فمبدأ سان سيمون الاساسي هو « الصناعة تصنع الكثير » وهكذا سيأخذ كونت عن سان سيمون وضعه العمل في المرتبة الاولى ، والفكرة القائلة بقدرة العمل وحده على اقامة التجمع والسلام وايجاد الرغبة في مجهود انساني جماعي يطور الانسانية بتحويل العالم . نجد فلسفة للعمل لدى هيغل وسان سيمون وبرودون وماركس ولكننا لا نجد ذلك لدى اوغست كونت . لقد اعلن كونت عن فلسفة العمل المحولة للعالم والمحررة للانسان عام ١٨٢٦ واعتبرها ضرورية وسابقة لاوانها .. ثم امتنع عن ذكرها فيما بعد ، وهنا أيضا بقي بعيدا وغريبا عن تطور سان سيمون فقد اولى كونت اهتمامه لدور التطبيق العملي في تطوير المعرفة اكثر من غزو العالم . فهو لا يهدف كديكارت وسان سيمون الى جعلنا اسياد ومالكي الطبيعة، انه يرنو الى تنظيم المعرفة والمجتمع لارتباطهما المباشر . وقد ابعده مفهومه للسلطة الروحية عن كافة النزعات التقنوقراطية من جهة اخرى . لقد جرى كل شيء بالنسبة لكونت كما لو ان الفلسفة قد دفعت الى مراقبة واقعة اساسية وعلى عدم استنتاج كافة النتائج المتوقعة منها .

على كل هنالك فكرة اساسية تسود علم الاجتماع لدى كونت كما تسود علم السياسة لديه وهي تبعية الذاتانية الاجتماعية الامر الذي يستتبع خضوع العلماء كالمواطنين تماما للسلطة الروحية . بكلمة اخرى لا يمكن لانسان ان يرتكز على ذاتانيته الخاصة لاظهار اي شيء كان : نحن نملك حقا واحدا هو اتمام واجبنا ، يزداد اتجاه هذه الفلسفة الى الاحلال التلقائي للتحديد الهادىء والصارم للواجبات مكان المجادلات المبهمة والعاصفة حول الحقوق فالاول اجتماعي مباشر والثاني ذاتي فردي صرف . ويمثل هذا التمييز العام دوريا تفوق الفكر الماورائي او الوضعي حيث يؤدي احدهما الى اخلاقية شبه سلبية تسود فيها الانانية وتؤدي الثانية الى اخلاقية توجهها المحبة والرحمة .

يجب ان يزول مفهوم الحق من السياسة كما يجب ان يزول مفهوم العلة من المعرفة فيقول كونت في « التعاليم الوضعية » لا تعترف الوضعية للفرد الا بحق اتمام واجبه دائما ، وبتعبير اصح تفرض ديانتنا على الجميع موجب مساعدة كل واحد في اكمال وظيفته . يجب ان يزول مفهوم الحق من الميدان السياسي كما يجب ان يزول مفهوم العلة من الميدان الفلسفي « ويجب ان يكون هذا الاختفاء اكثر جذرية فكونت يعزز بطريقة ما القصدية او الغائية الداخلية على الاقل في علم الاحياء . هذه القصدية التي تقتضي امتثال الاجزاء للكل وهذه خاصية الاحياء . اذ لا يمكن تفسير

الاعضاء الا بالنسبة لمجموع الجهاز العضوي.وبودنا الاشارة الى ملاحظة مشابهة متعلقة بالقانون : فكونت ينكر القانون الشخصي وينفيه الا انه يشيد نوعا من القانون الوضعي . وهذا كان راي القانوني دوغيه Duguit الذي بنى قبل ان يلجأ الى تعزيز الشعور بالعدالة ، بنى بصورة خاصة الحياة الاجتماعية على واقع التضامن المصدر الضروري والكافي لقاعدة قانون وضعي حقيقية ، وقد حاول ليفي برول Levy Broul في مؤلفه حول فلسفة كونت الاقناع بانه ينكر الكلمة ولا ينفي الشيء . يؤكد كونت نفسه ارادته في استبدال مفهوم القانون بمفهوم الوظيفة الاجتماعية ، كذلك جعل المستحدثون من الملكية حقا اي تكريس لادعاء اناني بينما يتوجب ان تكون وظيفة تصل نشاط كل عائلة وتلحمه مع التآزر العام في المجتمع . يجب ان تبقى الملكية خاصة في حيازتها وان تصبح اشتراكية في استعمالها واستغلالها . ومثل هذا التفسير لا يبدو لنا محقا فنحن من راي غورفيتش Gorivcetch الذي يعتبر نفي كونت لفكرة الحقوق جذريا لانه باعتراضه على الحقوق الشخصية لا ينادي بحق وضعي اجتماعي بل يقول بواجبات آحادية الجانب وملزمة لطرف واحد » . ففكرة سيادة القانون الوضعي التي يرتكز عليها نظام دوغيه Dugiut تخالف الافكار الوضعية ولا بد ان كونت كان سيرفض اعتبارها ماورائية فكونت بنفيه المطلق لفكرة الحقوق انما يطري

فكرة التبعية الكاملة للدولة مما يفسر لنا بلوغه ما سماه الديمقراطية الاجتماعية .

ويشكو كونت كالتقليديين من ان القانون هو تجريد ماورائي خطبة محام ، أو أقوال مشرع تتنصل من الوقائع التاريخية ، تحد من السلطة وحتى من الديكتاتورية ولا تعبر عنها وهذا ما دفعه الى التعليق على انقلاب الثاني من كانون الاول من العام ١٨٥١ بقوله « قضي على تيمية القانون بيننا بفضل هذه التجربة الجسورة » ليس لاهماله الكامل الدفاع عن الفرد بل لقيامه على فكرة الواجب ما كان أي فرد ليشتكي لو أتم الجميع موجباتهم أي وظائفهم « تنتج الضمانات الفردية العادلة عن تبادل الموجبات الشامل الذي يولد المقابل الاخلاقي للحقوق السابقة دون ان يؤدي الى مخاطرها السياسية او يحمل اليها » . وهكذا نرى وجود الضمانات الفردية الا انها روحية فقط لا قضائية وهي تتعلق باخلاقية الفرد أي بامتثال الذاتية للاجتماعية السائدة عن الوضعية . ويستبعد كونت فكرة احاطة الفرد بهالة من الحماية القضائية « الوضعية لا تقبل الا بواجبات الجميع تجاه الجميع » فوجهة نظرها الاجتماعية لا يمكنها قط ان تتضمن اي مفهوم من المفاهيم الحقوقية القائمة على الفردية والذاتية . فنحن حين نولد انما نولد ملتزمين بموجبات متنوعة موجبات تجاه اسلافنا واخرى تجاه خلفنا واخيرة تجاه معاصرينا ، وهذه الموجبات تتطور وتتراكم قبل ان نؤدي

ايــة خدمة فعلى اي اساس اجتماعي يمكــن اقامة فكرة الحقوق التي تفترض عقليا وجود فعالية سابقة ، فمهمــا بلغت جهودنا فان اطول حياة احسن استغلالها لا تتيح لنا الا اعطاء جزء ضئيل مما حصلنا ولا يسمح لنا بالمطالبةبمقابل الجديدة الا اذا اعدنا ما حصلنا عليه كاملا . اذن كل حــق انساني مضحك لا أخلاقي . بما انه لا وجود للحقوق الالهية فلا بد من القضاء على هذا المفهوم تماما لانه عائد للنظام البدائي ومتناقض تماما مع الحالة النهائية التي لا تقبل الا بالواجبات وفي الوظائف . وهذا « القضاء طبيعي في مفهومه كله ، هذا المفهوم الذي يشيد الحياة الإجتماعية على الحب ، فهو يتوافق في اعمق معطياتها التي تبني الحريات الشخصية على السلطة الروحية دون اية موافقة قضائية . وكما ان المراة هي المنظم الطبيعي للحيــاة الخاصة كذلــك السلطة الروحية هي المنظم الوحيد للحيــاة العــامة ، فهو وحده قادر على « تكريس الحكومات وحماية المحكومين » . ولكن كونت لم يذكر الحالة الناتجة عن انحطاط الكهنوت أو عد امتثال السلطة الزمنية له : اذن فتأثير الكهنوت الوضعي المفترضة دائما فيه الفعالية يضمن قيام كل فرد بواجباته .

ملحق

يقول Gouhier للفلسفة مادتها الخاصة ، فهي ليست علما ولا هي طريحة العلوم ، ليست الدين ولا تحوير الدين او تبديله . فانطلاقتها حيوية وهي ذات مصدر علمي او دينيأو الاثنين علىالسواء وهذا هو حالأوغستكونت . . فالفلسفة بالنتيجة هي تفتح أكثر منها مصدرا أو منبعا فالوضعية هي ازدهار مصدر علمي ومصدر ديني ولا مجال لمعارضتهما هي منطقية اي انها امتثال للطبيعة وهي اخلاقية اي انها امتثال للانسانية وهما تنهلان من نفس الفكر . وتبقى الفلسفة الوضعية كذلك وان بدا دور العاطفة اكثر تجليا ، بعد اللقاء مع Clotilde de vaux الاخلاق والدين ليسا اختراعين بل نهايتان ونتيجتان ضروريتان للنظام . لا بد أن توصل اليها فكرة الانسانية التي تعتبر الكائن الاعظم وفكرة تفوق الطريحة على التحليل وفكرة نفى الحقوق .

وكما أن العلم يغذي الرشاد والعقل السليم والمنطق العام كذلك الاخلاق هي تقييم للاستعداد التلقائي المشترك بين الجميع : على الفرد العيش في سبيل الآخرين لانه يعيش بالآخرين . وفي النهاية يتحد كل شيء ضمن اطار الاخلاقية والدين .

بالاخلاق نسيطر على الدين لا بموضوعه بل بأصله

الذاتي حتى لتصبح كافة العلوم فروعا للاخلاق وهكـذا تسيطر الفلسفـة الوضعيـة على الفكر بطريقتين اولهمـا السبيل الموضوعي فكونت يرفض الاستبطان وينفي الكوجيتو او السيطرة المباشرة للفكر على نفسه ويجهد بالبحث عـن الفكر ويحاول اكتشافه من خلال تاريخ العلوم ويجرب ان ينقذ المعرفة من ذاتها برفضه الاحساس بالذات .. ثـم يعتمد السبيل الذاتي فيقول بامكانية اكتشاف الفكـر في مصدره تحت شكل العواطف على الاقل ومن هنا تنشـأ الاهمية المتزايدة للاخلاق والدين في هذه العقيدة التي تتيح مجابهة كافة الاشياء في مصدرها داخل الانسان . فالاخلاق والدين يجعلان الطريحة الشخصية ممكنة . الوضعية هي فلسفة بالنسبة للانسان انها انسانية ضمن اطار معين ، ولكن انسانيتها اجتماعية فالانسانية بكاملها هي مقياس كل شيء لا الفرد ولا اي مجتمع معين ، وهذا لا يمنع الوضعية بصفتها الانسانية من الانحناء على الانسان وتوجيه المعرفـة نحو مـا يفيده وهي تحضر بذلك للذرائعية التي جعلهـا Shiller انسانية ..

ويكتب كونت « تعني الوضعية في اقـدم معانيهـا الواقعية المتعارضـة مع (خيالي) كما تعني معنى ثانيا قريبا من السابق الا انه يتميز عنه تعني التناقض بين النـافع وعديم الفائدة » .

يتميز الفكر الوضعي بالتنظيم والتنسيق بين الواقعية والمنفعة ، فهو يريـد معرفة الواقـع لتحسينه على قدر

الامكان لاشباع الحاجات الانسانيــة ، « يجب ان ندرس العالم من اجل الانسانية ومــن ضمن اطارها » وقد ادى هذا الموقف بكونت الى التمييز بين العالم والكون . فالعالم هو جزء من الكون الذي نؤثر فيه والذي تقتضي مصلحتنا معرفته . لقد سبق واشرنا الى اهمية هذا المفهوم وخطورته على حد سواء فهو الذي دفع بكونت الى عدم الاقتنــاع بالمذهب الطبيعي وعدم القبول به وحده وادخال النشاط الروحي الى المعرفة والى ادانة الفرضيات الخاطئــة التي تجعل منا اشياء بسيطة في الطبيعة و « التصوف » هــو هذيان موضوعي . بفضل هذا الاعتبار اعتبار ما هو نافــع للانسان ، اعتبار نشاطه وعمله اصبحت الوضعية فلسفــة عظيمة في مصاف الانسية . . وقد أدى هذا الاعتبار المنفعي للتطبيق العملي الى تقليص العالم بالنسبة للكون واقامــة مفهوم مجمل للوضعية . وكونت الذي لاحظ في البداية ان البحث المهتم بالمنفعة المباشرة سرعان ما يتوقف تقدمه توصل الى اساءة تحديد حدود المعارف الانسانية باسراعه بالحكم على بعضها بعدم الفائدة (تلك المتعلقة بالنجوم والتي اثمرت فيمــا بعــد) .

لقد بدا لنا ان مفهوم النظام يسوس علم اجتماع كونت بكامله، رجل كونت هو حر دونشك الا ان حريته هي حرية الالتحام والمساهمة ويؤدي المفهوم الماورائي للحرية الى عدم التقيد بأي قانون مما يؤديبها الى الفوضىوالفوغائية. وعلى العكس من ذلك نجد ان الحرية الحقيقية متلاحمة مــــع

النظام سواء كان انسانيا او خارجيا .. فالحرية الاخلاقية والحرية السياسية تنتميان الى نفس فئة حرية الذكاء . ان تكون حرا في ميدان المعرفة هو ان تلتحم بالحقيقة . ولا حرية للتفكير في علم الفلك وكذلك في النظام الاخلاقي .. فنحن احرار معنويا عندما تكتسب ميولنا قدرا « كافيا » من القدرة يخولها توجيه حوافزنا العاطفية نحو هدفها الصحيح ...

ويحقق الجسم حريته حين يقع في توجهه الصحيح نحو مركز الثقل . ويحقق العالم حريته عندما يكتشف الحقيقة لا عندما يخطيء . وهكذا تقتضي حرية الانسان هيمنة الاجتماعية على الذاتانية « تقتضي حريتنا الحقيقية تقليب وترجيح الميول الطيبة على السيئة وهنا يكمن ميداننا الواسع شرط تلاؤم تدخلنا مع القواعد الاساسية للنظام العام » فالحرية متعايشة مع النظام لذا فمن الطبيعي تمكن سلطة معينة من ان تضمن سلطة النظام في الافكار وان تضمن سلطة اخرى نظام الاجساد يعني ان تفرض سلطة الحقيقة الفلسفية والعلمية وان تفرض سلطة اخرى النظام السياسي والاجتماعي وهنا نشأ تمييز الان Alain بين السلطتين بالسلطة الروحية او النظرية والسلطة الزمنية أو التطبيقية اللتين يعهد اليهما بضمان حرية الانسانية بعد تأمين نظامها . لا يستتب البقاء والدوام لاي مجتمع دون شيوع الافكار والعواطف الامر الذي يعني ان لا حياة للحضارة دون روحية مشتركة : فالحضارة

هي اولا الحفاظ على الفكر الواحد وتطويره وهذا الحفاظ والتطوير غير ممكنين دون سلطة روحية صرفة خاصة بهما فلا حضارة دون رجال الدين « لا يمكن لاي مجتمع الحفاظ على نفسه والابقاء عليها دون كهنوت » لذا يعود : الى الوضعية تشكيل هذه السلطة الروحية ومهمتها « القضاء والادارة التي تخلت عنها الكاثوليكية » هدف الوضعية الاخير هو تشكيل كهنوت الانسانية القادر وحده على وضع حد للفوضى السياسية والاجتماعية . « على الجميع الاعتراف بأن الحل المباشر للثورة الغربية هو نشوء سلطة روحية اي كهنوت منهجي » وسيتكون هذا الكهنوت المتجدد من علماء الاجتماع لاننا نعني تطابق علم الاجتماع مع الفلسفة الوضعية اي بتملكه للروح الجماعية وتوجهه الى العموميات المنهجية وسيطرة الطريحة على التحليل . بكلمة واحدة الاخذ بالفكر الموسوعي يخضع للسلطة الزمنية رغم ان وسيلة عمله روحية ومعنوية .. وهذه الوسيلة فعالة لان كونت يعطيها كالمؤسسة الكاثوليكية حقا ويفرض عليها واجبا (تصنيف لائحة الكتب المسموح بقراءتها ليصار الى اتلاف البقية الباقية منها) .

ويعترف كونت في نظام السياسة الوضعية باخطار السلطة التي يمكن ان تطور لدى ممارسيها عادة الحكم والرغبة فيه ... فكل من يصل الى الحكم يطمح الى النفوذ الشخصي الذي يختلف تجليه من الصعيد الروحي الى الصعيد الزمني فهو يطور في الحالة الاولى الغرور ويغذي في الحالة الثانية الشعور بالكرامة . فقد كتب كونت « يتطلع

كل من السلطتين الى النفوذ الشخصي ولكن الاولى تحاول بلوغها عن طريق القوة والثانية عن طريق الفكر والرأي ... الغرور يدفع الى الامر والكبرياء تدفع الى الاستشارة وهذا هو التمييز الطبيعي بين السلطتين الزمنية والروحية فكما يقول برغشون « للكبرياء صبغة اجتماعية وهي تأخذ بعين الاعتبار وجود الاخرين وتستبعد اللجوء الى السلطة بينما يتجه الغرور الى نفي الاخرين واخضاعهم الى ارادته : وسلطته مبنية على القوة هي سلطة زمنية لكن يجب الا تخدعنا كلمة الرأي العام فالامر لا يتعلق بالافضلية الفردية بل بالمعرفة العامة اي ان الراي العام يتحول الى وسيلة للتأثير والاقناع والاخضاع ولا يبقى معتقدا ويقتضي دور الكهنوت المتجدد الحفاظ المستمر على سيادة الطريحة : في المجتمع الوضعي يمضي الجميع حياتهم بكاملها في الدراسة ، الم يكتب ستيورت ميل ان كونت يغار على الحرية والبديهة الفرديتين كما يغار المعلم او المهذب .

وافكار كونت علمانية علما ان العلمانية لاتتعارض والدين الا انها تفرض التمييز بين الامور الدنيوية والمقدسات وتفترض انفلات جزء من الحياة الانانية من سيطرة الدين وهي تختلف في هذه النقطة مع الوضعية اذ ان كونت يرى في التوحيد موقفا ماورائيا يناقض بين السمو والعدالة ويفضل التجريد مما يختصر من دور الدين في الحياة اليومية والارض والاموات وقضايا الحياة العادية ، فالتوحيد معارض للاجتماعية لانه يكرس الانانية في الامثولة السماوية اولا ثم بين معتنقيها .

ويرى كونت في التوحيد تبجيلا لفكرة الفردية لاعلاء تكريس الانانية المطلقة . نأخذ من الدين ما نعطيه لله وتدور فكرة كونت بكاملهــا حــول قضية العلاقات بــين المعرفة والعاطفة . لقد طرح سان سيمون على نفسه هذا السؤال ووجد حلــه باللجوء الى الشعور الديني والشعور الفني للحفاظ على الاخوة الانسانية وتعميقها وقد لجأ كونت الى نفس هذا الحل فاعتبر ان غاية الفن تتعدى ذاته : فنظرية الفن للفن هي نظرية ماورائية هدامــة .. هكذا يطور نظام السياسة الوضعية علم اجتماع الفن وهدفه اجتماعي بصورة اساسية ومثال كونت الجمالي هو الفــن الشعبي والديني الذي كان سائــد في العصور الوسطى .. وتبدل ديانــة الانسانية الطقوس الكاثوليكية التي دمجت بها كافة الفنون واخضعتها كلها لهدف تثقيفي واجد . ويوحد كونت كسان سيمون بين المشاعر الجمالية والدينية ويحدد لها هدفــا واحدا : تطوير الايثارية . وتجسد الديانة الحيــاة والفن معا بينما تبدو البدية كنفي لكل علمانية . يولي كونت البدية اهمية كبيرة فهو يود الابقاء عليها وضمها الى الوضعية بعد ان يخلصها من طابعهــا المطلق ويحولهــا الى لعبة خياليــة شاعرية ونافعة معنويا . ويعتبر كونت ان للخيــال دورا مزدوجا من الناحية الفنية ومن ناحية المعرفة ، وفي الدولة الوضعية تربح لعبة الخيال التصورية من الناحية الجمالية ما تخسره من ناحية المعرفة . .

وتوجب ديـــانة الانسـانية العوذة الى البدية وتجاوز كافة المراحل الوسيطة ممـا يتيح للشعوب المتوحشة التي حافظت على بدائيتها التطور السريع وبلوغ الحالة الوضعية بصورة مباشرة دون الحاجة لانتهاج درب الشعوب الغربية بكامله ، دون الحاجة للمعاناة من المرحلة الانتقادية الهدامة.

لقد سبقت البداية مرحلة التمييز بـين الفن والعلوم والدين ، فهي مزيج من العاطفة والمنطق انها العلامة الاولى لعظمة الانسـان الفلسفية عند اكتشافه الطريقة الموضوعية التي تتميز بالتجسيد : اي تصوير كافة الامور وفق الهيئة الانسانية وبالنسبة للانسـان . ويشكل التجسيد اهم مـا في الانسانية التحديد الصرف للجمال « لايمكن الاعتراض على اهليته الاخلاقية لاتجاهــه الى تمييز الشكل الانسـاني فهو يشعرنا بالود لكـافة الموجودات حتى الجامدة منهـا بتصويرها مشابهة لنـا » لذا لا بـد مـن وجوده بصورة متفوقة في الحالة الوضعية التي تحققها وتكملها ، فالوضعية هي الفلسفة التي تقضي بحركة واحدة على الله ويكهنت كل فكرة .

وهذا ما يحل قضية صراع الطبقات فهي لا تزول كما في الماركسـية بالغاء الطبقات فالوضعية تبقى عالما اجتماعيا متأثرا بالتقليدية ، تبقى عالما يأخذ بالتسلية، عالما يصنف فيه كل فرد وفق وظيفته . اذن كونت لا يلغي الطبقات بـل يدعي توحيدها باشراكها في معرفة واحدة ، يأخذ بالايحاء

الروحي الذي يقيم الوحدة بعيدا عن تنوع الوظائف والمهام . ويوجد لدى كونت كما ميستر Maistre وبونالد Bonnald ولامنيه La menais ميل الى العضوانية الاجتماعية . لا شيء اخطر من فكرة النهاية اذا طبقتها الجماعات فهي تؤدي الى المجتمعات الحيوانية أي الى اخضاع الاجزاء . هنا الافراد الى الكل الانسانية . حيث يتعرض الكل الى خطر التحول الى عضو في المجموعة . فأفكار الوحدة والتنظيم والتسلسل ليست الا بديلا للغاية الداخلية وتبقى راجحة على الوضعية . واذا كانت عملية اعطاء الافضلية عملية هدامة فان نظرية الطريحة جائرة وتعسفية فقد قال برودون « الطريحة مؤيدة للحكومة دائما » وهو يقصد من ذلك ان الطريحة تفرض على الانسان ، تفرض عليه من الخارج ، انها ناتجة عن حكومة « عن سلطة تفرضها » .

ويعتقد كونت بوجوب عدم قيام « استبداد سياسي » وقد اتخذ كافة الاحتياطات من الخطر التقنوقراطي فاخضع السلطة الزمنية الى السلطة الروحية وهنا تكمن عظمته . كما حل قضية الطبقات باخضاع السياسة للاخلاق وهنا أيضا يكمن خطأ كبير اذ انه أتاح لنا التساؤل عن مدى فعالية السلطة الروحية التي لا تملك وسيلة عملية ضد تمرد السلطة الزمنية سوى التأنيب والتوبيخ . ومما لا شك فيه هو ان مثل هذه الفعالية ستكون كاملة في حال

توفرها لانها دليل على تأثر المجتمع الكبير بالوضعية فلا يفكر احد بالانفلات والتحرر من نفوذها .

وتشكل المعرفة الوضعية موضوع معرفة العلماء فهي موضوع ايمان وفق المعنى المزدوج للكلمة : الايمان والثقة من قبل هؤلاء الذين لا يملكون لا الوقت ولا الوسائل لامتلاكها . يأتي الاعتقاد في الدرجة الاولى في هذه الفلسفة العقلانية ، فقد كان كونت يحب ترداد هذا القول للسيد المسيح « يجب ان يلحق الذكاء بالايمان لا ان يسبقه او يعترضه » . ومثل هذا القول جميل لو تعلق الامر بايمان حارس للذكاء ورغبة في البحث عن الذكاء وايجاده . يؤدي القضاء على الشك في الوضعية لصالح الايمان الى حكومة القادرين علميا والصالحين فلسفيا .. فنحن لا نتخلص من الاستبداد السياسي الا للوقوع في الطغيان الفلسفي . ولا بد من البحث عن المنطق النهائي في المعرفة الجذرية للموضوع الذي يميز الوضعية . لقد فعلنا كل ما سمحت به النصوص لاعطاء قيمتها الفعلية للطريحة الذاتانية وتحديد دور الفكر في فلسفة كونت الا اننا غالبا ما نصطدم بالعقبة التي تعتبر الموضوع الرئيسي هو الانسانية لا الفرد .
ولا بد هنا من الملاحظة بأن ما اتهم به كونت من نقص في الوضعية هو دليل على نبوغه الفلسفي . فانبل ما في الانسان واثمن ما فيه يأتيه من اندماجه في الانسانية ، فلقد اكتشف كونت في تاريخ الانسانية كرامة الفكر الانساني هذا الفكر الذي نجهله وان استشففناه في بعض المؤلفات

او في مصدره العاطفي . فنحن نلاحظ اهمية دور التربية واهمية التاريخ الا اننا نتساءل ابدا عن السبب الذي يجعل الانسان قابلا للتربية ، عن السبب الذي يجعله يملك تاريخا ، فاذا كان المجتمع يضيف ويثير الا انه يستعمل ويأسر فهوعاجز عن انتاج نتائج روحية لدى شخص يفتقر الى الفكر وهذا هو اعتراض بيران Biran على بونالد Bonnald حول رأيه في أصل اللغة : فلو ان الله توجه الى كائن بهيم لعجز هذا الكائن عن فهمه لذا كان عليه ان يهبه عقلا ليفهم . ويمكننا توجيه نفس هذا الانتقاد الى كونت فمن أين استحصلت الانسانية على هذه القدرة في اتمام هذه الاعمال العظيمة ؟ بكلمة اخرى تجنبت الوضعية الطبيعة ، تجاوزت كافة الفلسفات في تحديد الذاتية الانسانية تجاه الطبيعة . وتبقى هذه الذاتية غير مفهومة فهي غير قابلة للتفسير وان كانت اكيدة . لقد كان كونت محقا في انتقاد الاستنباطية لاعتقاده ان الفكر لا يتعرف على نفسه الا من خلال وسيط ، يعود الى نفسه من خلال نتاجه لجهله « التفكير الحدسي التدريجي » الذي يفترض تفكيرا خاصا نوعا من حلول الحدس غير الممكن مباشرة . لقد اكد بريان ان الدفاع عن الفكر هو دفاع عن الفرد وهذا هو الدرس الذي ينتج عن وساطة الوضعية ، فالوضعية تجهل الشخصية ولا ترى فيها الا مجموعة ميول انسانية وتنفي عنها السمو وتخضعها للنظام الخارجي وتريدها ان تصبح مرآة له . فمراقبتها القيّمة وملاحظتها العميقة

وحدسها الفني ومفهومها الحـاد للحياة الاجتماعية قـد افسدها جهله للموضوع .

نحن نعترف بصراحة ان كل تفكير ثانوي أي انه تفكير حول نتاج الانسان حول نشاطه ، حول عمله ، فالتاريخ هو مختبر الفلسفة لان الحياة وفق بريان هي حياة مفرطة في المادية حياة جهد وعمل ولا بد كي يتمكن الانسان من تغيير الطبيعة لا بد لها ان تكون غير مكتملة ، لينة حتى يتمكـن الفكر من التوغل فيها دون ان يتعرض للضياع . ويـدل التحليل التأملي للعمل انه دليل على مرونة الطبيعة .

ولا بد ان كونت نفسه كان يشعر حين يستشف هذه القضية المسبقة لاوانها انه لا يملك وسائل حلها رغم انه يعتبرها ضرورية فهو لم يستطع ابدا ان يستخلص العمل او مـا سماه برودون بالانبعاث الفكري مـن « البعث الفكري » . لا معرفة للذات دون احساس ولو ضمني بالذات فلا يمكن للفكر التعرف على ذاته من خلال نتاجه اذا لم يكن يعي نفسه . تكمن كل اهمية الوضعية في رهانها على التخلص من الطبيعة دون القبول بارتقـاء الانسان عن الطبيعة ولم يكن مجال الربح فسيحا امام هذا الرهان .

اوغست كونت في سطور

ولـد اوغست كونت في مونتبيلييـه Montpellier عام ١٧٩٨ وتوفي في باريس عام ١٨٥٧ وهو فيلسوف ومصلح اجتماعي برهن عـن وحدة في افكاره منـذ البداية حتى النهاية ./ وتدور مؤلفاته حول محور واحد هو الانسانية فهو يقول بخضوع الانسانية لمفهوم التاريخ فهي تحكمهـا قواعد اجتماعية واحدة وترنو الى نظام اجتماعي مشترك .

كان لافكار كونت تأثيرها الفعـال في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقد مهدت مع انتقادية كانت سبيـل التفكير العلومي امام الفلسفة الفرنسية وولدت في السنوات ١٨٨٠ تيار الوراثة التي اثارت روحية برغشون والفلسفة الوجودية كما يعد كونت ابو علم الاجتماع التطبيقي الذي اصبح دوركهايم من كبـار رواده .

فهرس

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

صدر حديثاً

في سلسلة اعلام الفكر العالمي

- رينان
- برنارد شو
- غرامشي
- توماس مان
- اوغست كونت
- شتاينبك
- اوسكار وايلد
- اناتول فرانس
- رامبو

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص.ب: ٥٤٦٠ - تلفون: ٢٥٦١١٠
بيروت - لبنان

الثمن :
أو ما يعادلها